

فريح الأسبوع

سبعة أيام



يوسف القعيد

الفهرس

- مدخل لا مبرر له ولكنه يقوم مقام المقدمة..... ٥
- عندما ذهب مصطفى إلى المرآز وعاد منه بملابس الجيش..... ٨١
- النار تشتعل. الماء يغلي. الغزالي ونورا يحاولان الغناء ويشعران
بمشاعر غريبة ٩٢
- مسألة السفر في رمضان. والإفطار في الطريق والعموم في بحار
الكلمات مع الأص دقاء القدامى ٠٤ ○
- القلب يدمع قبل العين أحياناً. ٣٥
- أحاديث ومشاعر أص دقاء الغزالي ليلاً..... ٣٥
- ثبت أن دعاء الأم حجاب.. فصل فيما جرى لمصطفى بعد وصوله إلى
المعسكر بالسلامة ٥٦
- عن الرقم سبعة. الحرب. الطائرة. شجرة التوت ثم السبب في وقوع
الغزالي على الأرض فجأة ٩٧
- [٨] لوحة أخيرة.. ٢٩
- بدلاً من الخاتمة التقليدية..... ٢٩

{1}

مدخل لا مبرر له ولكنه يقوم مقام

المقدمة

وقت العصاري، دق التليفون في دوار العمدة. لم يكن الكاتب موجودا، رد عليه الخفير النوبتجي. طرد نوم العصاري من عينيه، ونفض كسل آخر النهار، وقام أمسك المسماح، لامست أذنه خر وشة بعيدة، أبعد، وبدأ ينصت؛ لكي يكون الإنصات تاما. مد أصبع يده، سد به أذنه الأخرى أمال رأسه على المسماح، رفع صوته:

- ألو يا نقطة.

ثم صمت. كان اليوم ينحدر بتناقل نحو نهايته، وهو يبدو يوما خريفيا هشًا وهادئا. المار أمام دوار العمدة، في ذلك الوقت، لم يكن يسمع سوى كلمات قليلة، منتزعة من جملة، مبتورة المعنى، تخرج مهذبة من فم الخفير:

- نعم، أيوه مضبوط، أي □ أوامر؟

آخر كلماته كانت:

- أنا الخفير النظامي، من قوة حراسة قرية
الضهرية، التابعة لنقطة بوليس التوفيقية، مركز إيتاي البارود
- بحيرة يا أفندم.

خرج الخفير من حجرة التليفون، حرك يديه أمام
وجهه، دافعا بهما الهواء، مجففا به حبات عرق، نبتت فوق
جبهته رغم برودة الجو، اتجه إلى دوار العمدة. في الناحية
الأخرى من الباحة الواسعة، أكدت خطواته أهمية ما يحمله. السماء
لونها بنفسجي وسحب الخريف اللبنية اللون مشرشرة
الحواشي والحدود. دخل دوار العمدة. عند مروره على
الزربية، صافح وجهه هواء بارد مشبع برائحة البهائم
والتين.

العمدة كان نائما. نومه ما بعد الظهر، وما قبل آذان
المغرب. الخفير أكد أن الأمر خطير.

- التأجيل - قال الخفير - فيه ضرر.

الكلمات قيلت في إيجاز لم يكن من عادته. وكان
العمدة قد خرج في لباس بيتي من حجرة نومه. فرك عينيه
اللتين بدتا حمراوين من نوم النهار. جلس ونظر إلى الخفير،

الذي وقف وراح يبحث عن الكلمات في ذهنه، كي ينقل الأمر بخطورته كاملة إلى العمدة:

- المأمور اتكلم يا حضرة العمدة..

- بنفسه؟

- قصدي معاون النقطة.

- هو. -

طبعا

أخذ الحديث بين الجالس والواقف أمامه شكل السؤال والجواب. بكلمات قليلة تكامل الموضوع في ذهن السائل والمجيب معا، بسرعة أدرك العمدة المطلوب. الخفير لا يعرف القراءة أو الكتابة؛ لذلك فالتعليقات كانت شفوية. جملة واحدة نقلها الخفير كما هي:

- الأمر عاجل جدا.

حفظها لأنها كررت عليه في التليفون أكثر من مرة. قبل المغرب، كانت أربع بنادق تتحرك في الشارع الرئيسي للبلد على شكل هرم، رأسه للأمام وقاعدته للخلف. الهرم كان يبدو كالتالي، شيخ الخفر، وكيله، وراءهما اثنان من الخفر. الوقت هو عودة الفلاحين من حقولهم، وأرض

الحواري تئن وتتأوه تحت أقدام الحيوانات بحوافرها الحديدية. في يد شيخ الخفر ورقة بها أسماء. أمام كل اسم، خانة للعنوان وأخرى للتوقيع. خانة العناوين كانت بيضاء؛ فشوارع وحارات القرية بلا أسماء. والبيوت ليست لها أرقام. والكل يعرف البلد ككف يده. على المصاطب، تهامس الرجال، دار الكلام كسولا بطيئا، خرج من الأفواه الخائفة غير واضح ولا محدد.

- سحبوا الرديف الليلة.

نهر من الأسئلة والتعليقات يزحم جو المصاطب، وفي صحن الجامع، وأمام دكاكين البقالة.

- الرديف والاحتياط.

- الاثنان واحد.

- لآ، فيه فرق.

على أبواب البيوت كان موكب الخفر يتوقف، تصفق الأيادي، تخرج من بين الشفاه نداءات معروفة:

- يا ساتر، يا أهل الله.

تطل عيون نسوة وبنات وأطفال. الكل في ملابس

البيت.

أول ما تشاهده العيون البندقية المعلقة في الكتف المغطي ببالطو أميري أصفر، ثقيل وخشن، تجري نحو الداخل بعد أن تخط الباب في وجه الغفير تعود. يبدو واضحا أنها ارتدت ملابس تظهر بها أمام الرجال الغرباء. البيوت كثيرة، والأسماء مختلفة، والشبان لم يكن وقت وجودهم في البيت قد حل. فهم إما في الحقول، أو عادوا منها وذهبوا إلى المسجد للصلاة، أو وقفوا على رءوس الحواري أو أمام الدكاكين، في انتظار آذان المغرب. التنبيه واحد بالنسبة للجميع، شيخ الخفر بنفسه، كان يقول:

- لا ذا لازم يسلم نفسه في المركز.

- إمتى؟

- الليلة.. يعني بعد ساعة.

- وما ينفعش بكره؟

- لأ.

- المركز.. المركز.

- مكتب التعبئة.

- إيه؟

- التعبئة. التعبئة.

تدور الكلمة في الأذهان، يحاول البعض أن يفهمها، البعض الآخر يطلب من شيخ الخفر أن ينطقها مرة أخرى. فهي الكلمة الوحيدة، التي تخرج من فمه بلغة أهل المدارس والأفندية وسكان البنادر البعيدة. شيخ الخفر لم يكن يجد صعوبة في نطقها بشكل سليم. على كل الأبواب، كانت تزحم الهواء عبارات وتساؤلات وكلمات متناثرة من الأفواه يتناثر معها رذاذ يبيلل الوجوه.

- ليه خير؟

- الأوامر كده.

- هو فيه حاجة؟

- أوامر الحكومة.

- يا ترى حايرجعوه إمتى؟

- العلم عند الله.

- دا ابني لسه طالع من شهر.

شيخ الخفر، كان ينهي الحديث بكلمة فاصلة:

- الأوامر هيه الأوامر.

ينطلق لسانه بعدها، في ذكر أنواع العقوبات المختلفة لمن لا يذهب الليلة إلى المركز، سجن، غرامة، إلغاء حيازة الأرض، حرمانه من عضوية الجمعية الزراعية، شيخ الخفر يؤكد لنفسه أن هيئته هي هيئة الحكومة نفسها، ولا مانع لديه من إرهاب الناس، وتخويفهم في كل لحظة. وعندما كان يبدأ في ذكر أنواع العقوبات، كانت الأيدي ترتفع في وجهه، وهو في منتصف حديثه، تقاطعه:

- خلاص رايحين. بلاش كلامك ده.

أذن المغرب، سمع شيخ الخفر صيحة الأطفال "المغرب إبن أفطر يا صايم: فخلت الحوارى من الناس. وأصبحت البلد شبه مهجورة. قرر أن يكمل جولته، حتى آخر البلد وبعد الإفطار يمر على العزب والكفور، المتناثرة حول البلد، عزمت عليه أكثر من أسرة:

- أنت صايم يا راجل.

ارتفعت يده إلى صدره ورأسه علامة على الشكر. أحد الرجال استوقفهم، ودخل منزله، خرج ومعه شراب

بارد.

- غيروا ريقكم بس.

كلما تقدم السير، بد الليل أكثر تأكداً، وأصبحت قراءة الكشف عملية صعبة، في دابر الناحية، الشارع الذي يدور حول البلد كلها على شكل حزام، كانت المهمة سهلة نوعاً. أعمدة النور ترسل الضوء الكافي للقراءة. في الحواري الضيقة، كانت مساحات الظلام تبتلع كل المرئيات بداخلها. القراءة كانت تتم من خلال حزمة ضوء خارجة من نافذة أو باب، أو على السنة كرة من الضوء الأصفر المتراقص المنبعث من عود كبريت أشعله أحد الخفراء، وتظل الكرة تصغر، ويبهت نورها حتى تنطفئ، بعد كل بيت كانت يد شيخ الخفراء، تمتد ببقايا قلم كويبا، ضاع طلاؤه الخارجي من كثرة الاستعمال كي يشطب أسماء، أو يدون كلمات أمام أسماء أخرى. كأن يكتب مسافر. خارج البلد، في المستشفى، سيقدم كشف عائلة.

شعرت البلدة كلها بجدية الأمر. عندما انطلق بعد أذان العشاء مناد، لف البلد. أن صوته يخرج من بين أصوات الأطفال الذين يلعبون في الشوارع، ينطلق بأول كلماته:

- يا عباد الله. جاءنا من نقطة بوليس.

يستمر النداء. والكل يستمع إلى أن ينهي نداءه
بالعبارة التقليدية:

- والحاضر يعلن الغائب.

ما أن ينزل يده من فوق خده الأيمن، حتى تحاصره
آلاف الأسئلة دفعة واحدة، المنادي ليس موظفا، لا يقال عنه
رجل حكومة؛ ولذا فهو يعطي نفسه الحق في الشرح
والتفسير والتحليل، وله وجهة نظر يقولها: إنه يقف على
رءوس الحواري، وأمام دكاكين البقالة وفي الباحات، لا يرد
على الأسئلة، وبقدر ما يستطيع، كان يشرح تصوره هو
للأمر:

- دي تجربة يا جماعة.

- تجربة؟

- بيجربوا استدعاء الاحتياط ونسبة التخلف.

- يعني إيه بيجربوا؟

ينطلق المنادي، في حديث طويل، ترد على لسانه
كلمات جديدة على الأذان لم تتعود سماعها من قبل.

- تسريح الاحتياط، خط التعبئة، تجربة كل شهر،

دقة عمل النظام، كفاءة الاستدعاء.

- وعرفت دا كله منين؟

عند هذا يتحرك المنادي، الكل مشغول بما قاله. أما المنادي نفسه، فهو معني بأمر آخر، إنه ينادي في شوارع مضاءة. من قبل كان يعوم في بحار الظلام. تخرجه حزمة ضوء صغيرة منها؛ ليعود إليها. الآن له ظل في الليل كما النهار. إنه يسير وبعد عدد معلوم من الخطوات، يرفع يده، يقول نفس النداء. ويتوقف كي يجيب على نفس الأسئلة.

صلاة العشاء في المسجد. الحديث عن حكاية استدعاء الاحتياط. بعد الصلاة تحولوا إلى جماعات صغيرة. قيل كلام كثير في الموضوع، وراح الكل يعد على أصابع يديه محاولاً أن يعرف عدد الذين سيذهبون إلى المركز من البلد.

في الضهرية، للسفر والفراق والبعد عن الأرض والبيت والأهل حنين خاص. لا تعبر عنه الناس بالكلمات. يجدون في الصمت والثثرة والهروب، حيطان أمان يسندون عليها قلوبهم المتأكلة. مر بالضهرية غرباء. مسافرون في الليل. قالوا عن قرى الناحية الأخرى. دميستنا السوالم، ششت الأنعام، نكلا العنب. الحال فيها واحد. الكبار والصغار

تحدثوا، قيلت حكايات عن الجهادية والسلطة والجيش المرابط وأيام
السخرة، وسنوات العسكرية الخمس التي أصبحت
ثلاثة، ثم سنة ونصف للمتعلمين. قالوا الكثير عن الرديف
والخدمة في بلاد الدماء الحارة ومدن الثلج والضباب. الشيخ
عبد الله خطيب المسجد كان موجودا. ورغم أنه فوق الثمانين
من العمر، إلا أنه أخرج حافظة نقوده، فتحها ببطء عبثت
أصابعه بجيبها، أخرجت صورة تكسرت ملامحها، وتاهت
معالمها. أفسحوا برءوسهم ممرا للضوء. شاهدها، قال: إنها
صورته، مد أصابعه، أشار بها، حاول أن يلفت النظر
لطربوش فوق الرأس، وثلاثة أشرطة على الكتف الأيمن.
وحذاء ضخم في القدمين. وقالشين صوف يلف الساقين.
العيون تشكل حلقة من البريق. في الصورة رجل يقف
كعمود النور الممتد فوقهم. إن حكاية الشيخ عبد الله تبدأ
الآن. صوته يأتي هادئا وادعا. كخريير المياه في الحقل
البعيدة. يرق صوت الرجل وتسيل ملامح وجهه، وتصفو
الحياة من حوله. الحكاية معروفة. شاب ريفي نصف متعلم
جند في الجيش، منذ أكثر من نصف قرن، كاد يصل إلى
رتبة الضابط لولا.

تنحدر بهم الحكاية نحو الماضي، حتى تصل إلى هوجة عرابي باشا. فيها سفرات إلى غابات السودان، جبال الحبشة، مدن يركب سكانها الأفيال، يعودون من رحلتهم على أجنحة الكلمات إلى حكاية المجندين أبناء البلد. كلهم جنود، فيهم ضباط ثلاثة فقط، اثنان احتياط وواحد عامل. رتبته صغيرة، فلا يزين كتفيه سوى ثلاث نجوم لامعة.

موعد السحور يقترب، ولكنهم ما زالوا في جلستهم. الحديث في مثل هذه الجلسات مثل موج البحر، الجايات أكثر من الرائحات فيه. والذاكرة تمنحهم عالما من الحكايات والأصوات والأسماء والتواريخ، فيمتد حبل الحديث. في نفس الوقت، كان شيخ الخفر، يدق فوق باب دوار العمدة. عندما قابله، خرج بخار من فمه، ففضح كلماته:

- تمام يا أفندم.

تم التنبيه على البلد كلها، ما عدا.

لم يرد العمدة. ذهب إلى الدوار. في حجرة السلاحليك جلس على مكتب الخفير النوبتجي بنفسه، أمسك

التليفون وأدار يده. رد عليه معاون النقطة. كان ساهرا.
فتعب العمدة. أعاد عليه الكلمات التي سمعها من شيخ الخفر.
في الباحة الواسعة أمام الدوار. وقف العمدة ومعه
شيخ الخفر والخفراء، ردوا سلام أكثر من رجل مر عليهم،
تطلع العمدة إلى السماء. وشبك يديه على صدره. طلب من
الخفير النوبتجي أن يظل ساهرا بجانب التليفون. خطا نحو
داره خطوتين ثم توقف واستدار.

- تصبحوا على خير يا جماعة.

ردودهم أنت متبانية الأصوات، خدش صمت الليل:

- وأنت من أهله يا حضرة العمدة.

[٢]

عندما ذهب مصطفى إلى المركز و عاد منه بملايس الجيش

في قريتنا أغنية قديمة، تقول كلماتها، أن كثره الوداع
ترقق قلب المسافر. وتسلبه القدرة على مواجهة متاعب
الرحيل، إلى البلاد البعيدة. أسير الآن في طريق العودة إلى
الضهرية، وفي ذهني تطن كلمات أغنية الأيام العجوزة،
راسمة عالما بأكمله، لما سأواجهه في البلد بعد قليل.
لأمسك بعقد حكاياتي من أول حباته.

العودة من الحقل، مصطفى يتمهل في سيره، العين على
القدم، فأمامه قناة تعترض الطريق، تعكس مياهها ظل
شجرة، وجزءا من سماء رمادية، تفادها، وقف على جانب
الطريق واستدار، بيده وصوته عاون بهائمه على تخطيها،
وخلال استدارته، اصطدمت قدمه بطوبة، وقعت في القناة،
فكرت مياهها وتوجت، استطالت الصورة وقصرت فوق
مساحتها الصغيرة. عند مدخل البلد، من الناحية البحرية،
نادى عليه شيخ الخفر، وقف فوقفت بهائمه في غير انتظام.

الأوراق التي في يديه عرفها مصطفى. طلب استدعاء. أعطاه الأصل وأخذ الصورة. طلب منه التوقيع بالاستلام، أفهمه بضرورة الذهاب إلى المركز الليلية، أو صباح الغد على الأكثر.

- وذنك على جنبك.

قالها وهو يسير مبتعدا.

رفع مصطفى عينيه، كان جلباب الشيخ أحمد، فوق منذنة المسجد، تعبت به نسمات الغروب. حاول أن يسرع في سيره، البهائم كانت بطيئة في البيت دخل الزريبة، تماما مثل كل الأماسي، ربط البهائم، وضع العلف لها في المداود. أثناء خروجه من الزريبة، لفت نظره بطن الجاموسة المنتفخ، وبدت له قدمها الخفيتان مقوستين من ثقل الحمل عليهما.

حول الطبلية، أمه وأخته والغزالي، شقيقه الأصغر. إنهم يأكلون. وسط صوت اصطدام الملاعق بالأواني والأطباق وتشدق الأفواه بالطعام، قال بشكل عرضي:

- انطابت للعسكرية الليلية.

توقفت أمه عن المضغ، وأطل من داخل عينيها تسأول مبهم، وتحول وجه أخته إلى علامة استفهام، في

الأشهر الأخيرة، تعود أن يذهب إلى المركز، أول كل شهر، حيث يوقع له، في سجل معه، بالحضور. وكل ستة أشهر كان يذهب إلى وحدته القديمة، عشرة أيام للتدريب، كان هذا نظاما متبعًا، ينفذه بدقة. الأمس كان يوم الاثنين، أول يوم في الشهر. ذهب مصطفى إلى المركز وعاد. الأشهر الستة الثانية لم تنقض بعد. وفي هذه الفترة كان مصطفى يحمل علامة خارجية فوق الجلباب. كان يلبس سترة كاكي قديمة، فوق الكتف شريطان، كل من يشاهده، كان يعرف الحكاية يسأله على الفور.

- طلعت من الجيش إمتى يا دفعة، إزيك..

أكل طعامه، شبع وقال الحمد لله، غسل يديه، وأخذ كوب الشاي المعد، بدأ يتحدث، الصوت خافت والكلمات تبدو عادية، حديثه عن البيات الشتوي في الحقل، قلب الأرض، ري البرسيم، تسميد أرض القمح، تنقية الحشائش من خطين فول وخطين كرنب على رأس الحقل. انزلت على لسانه أرقام ماله وما عليه، حسابات الجمعية التعاونية. خرج وعاد أكثر من مرة، داعبهم وضحك معهم كثيرا أخرج من جيبه

أربعة قروش وأرسل نورا تشتري قصباً يتسلون به حتى السحور.

أخذ وجه الغزالي بين يديه وداعبه، بعد السحور ذهب كل واحد منهم إلى مكان نومه، خيم على البيت صمت مشحون. لكن أحداً لم ينام. بدت الليلة بطول العمر كله، مصطفى ينتظر صيحة ديك تنشر الفزع والاضطراب بين ديكة البلد كلها. انتظرها، ولكنها تأخرت كثيراً هذه الليلة.

الصباح، الذهاب إلى العمل، تركه، التوجه إلى إيتاي البارود. سفر عادي. أمام المركز جمع من الشباب يعرف الكثير منهم، في المركز، سمع اسمه ينادى، تكرر النداء فجرى، كتب اسمه أكثر من مرة في دفاتر مختلفة الألوان والأحجام، أعطوه استمارة سفر، قاده واحد منهم إلى مخزن رطب معتم، أخذ مهماته، المطلوب منه أن يسلم نفسه إلى وحدته في ظرف ٤٢ ساعة.

ركب السيارة الذاهبة إلى البلد، وهو في الطريق، نظر إلى الحقول، شربت عيناه خضرة النباتات وسمرة الأرض، ورزقة السماء. أحس براحة، شعر أن قلبه الجاف مدهون بطبقة ناعمة من الزبد. بدت له الضهرية، كانت

سحب الخريف المتناثرة في كسل، تكاد تلامس الحطب المنتشر فوق البيوت.

في البلد، ذهب إلى الحلاق، قص شعره، وحلق ذقنه وسوى شاربه، استحم بمياه دافئة، وبدأ يرتدي ملابس الجيش، وجد نفسه مجبراً مرة أخرى على إدخال قدميه في بنطلون الأفرول.. لبس الشدة. شبك في كم سترته الأيمن شريطين، وضع الطاقية فوق رأسه، ضبطها ثم خلعها وأمسكها في يده، وشعر بخشونة الجورب الصوف على ساقيه، وثقل الحذاء الميري الأسود في قدميه، بصوته عند المشي على الأرض. الفلاح أصبح في غمضة عين العريف مصطفى.

للجندي في بيوت الريف رائحة خاصة؛ لون ملابسه، نعومة جلد ذقنه، شعره الذي لا يبدو من تحت الطاقية الكاكي، ملابسه المغسولة المكوية، وهو لا يشاهد بهذا الشكل، إلا مرتين، لحظة قدومه في إجازة أو سفره إلى وحدته.

وقف أمام أمه، لم يتكلم، كانت أصابعها تتحرك، بشكل لا إرادي، كأنها تضرب على أوتار خفية، لحنا صامتا من الخوف والرعدة والحب. لحنا لم يسمعه أحد.

- مسافر يا ابني.

- إن شاء الله.

أكمل:

- خلي بالك من زرعة الشتا.

أوصاها بالحقل، على أصابعه عد ما فيه، حوض البرسيم البحري، يحتاج كيماوي مع الرية القادمة، أرض القمح تبدر مع المناوبة، الفول مطلوب عزقه وتنقيته، الكرنب لا بد من إخلاء الأرض منه تمهيدا لزراعتها خبيزة مع الشتاء.

الصمت بينهما يحتوي بداخله سيلا من الكلمات والمعاني الدافئة، شملهما هدوء مستتب. لقد بات وقت العصاري مسموعا. إنهما يسمعان خشخشة أوراق الشجرة العجوز القائمة أمام باب البيت، وحفيف أجنحة الطيور. ارتعش القلب. وعلى طرف لسان كل منهما، كانت تقف

كلمات وقصص وحكايات، لكنها لم تخرج، قبل أن يتحرك،
اقتربت منه أمه:

- افطر وبعدين سافر.

- المواعيد. سفر الليل صعب.

تشابكت الأيدي. في المرة الأولى لسفر مصطفى في
الزمان القديم، اكتشفت أن طفلها قد غدا رجلا دفعة واحدة.
في العينين طفولة، ولكن فوق ملامح الوجه بدت
خطوط الإعياء والجهد ورعشة اللقاء مع المجهول. وفي
أصابع اليدين. بدأت خشونة الفأس والمحراث تذوب مع الماء
الدافئ والصابون، نظرت في وجهه طويلا. أدركت ربما
لأول مرة أن في مصطفى الكثير من والده. أنه هو:

- الخالق الناطق.

سكبت في نظراتها عواطف وحديثًا صامتًا وكلماتٍ.

قالت له، وبسمة غريبة ترقص على ملامح الوجه:

- فاكِر سفرك أول مرة؟

هز رأسه ومن قاع خياله رأى امرأة أخرى، بها قدر
من الجمال، كان الأب موجودا، وكانت شابة، وكنت طفلا.

الغزالي كان قطعة لحم حمراء، يبدو جزء منها وسط
الفائف، ويديه تعبثان بالهواء بلا هدف، آه، كانت أيام.
الرغبة في الحديث تحرقه، يود أن يقول الكثير، ابتلع
كلماته. هي أيضا صمنت ولكن في لحظة ما. لا يدري أحد
متى تأتي هذه اللحظة، ستفرض نفسها رغما عنهما.
وسيغفران لبعضهما بعدها هذا الصمت الطويل المفعم.

الرحيل هذه المرة له طعم. جاء مبكرا. كالفرخ البكر
الذي يطير من العش قبل الأوان. تفوح من فم مصطفى
رائحة الصيام. المغرب لم يحن بعد. طريق السفر سكة في
الخيال. ولكنه طويل. أمه تطلب منه التوقف، في غرفة
المعاش، غزلت مما وجدته حجاب حب. لم تكن تدري ماذا
تفعل، فردت ورقة مبقعة، وضعت عليها كل ما وجدته،
وتذكرت السنوات السابقة، كان مصطفى يطلب منها أن تكثر
من كل صنف. فزملأوه بالخيمة، يأكلون معه.

سلم وسار، الحارة، داير الناحية، البيوت والدكاكين
والناس. كان عليه أن يلسم ويتكلم، ويجب على الأسئلة،
الهواء خريفي ناعم، والسماء نهر من الزرقة، في اليد
اليسرى ورقة ملفوفة ومربوطة بدبارة، وفي اليمنى طاقيته

ومفتاح. الطريق هو نفس الطريق. ولكن الشاب تغير كثيرا
مر بالحمامات التي يعمل بها. استدارت عيناه، بحثا عن
مكان حقله، لم يستطع تمييزه، اصطدمت رموش العين بخط
الأفق البعيد، وللخريف لون رصاصي منطفي ينتشر في كل
الألوان. يمتص بهجتها وتميزها، هدوء الغسق أقرب إلى
النوم، حنين مصطفى إلى الحقل والزرع والترعة يذيب
الفؤاد، قبل عودته بالأمس من الحقل شاهد نبات البرسيم،
أعواده شققت الأرض، كان لعناق الأخضر والأسمر، شكل
راعش، القمح لم ينبت، هجم البرد على الحقل، وإن كان
وجهه لم تبلله قطرات مطر هذا العام بعد. شم رائحة الأرض
الشرابي في انتظار المياه التي تطفئ ظمأها.

نظر خلفه، لم يشاهد لظله الطويل نهاية. وعلى آخر
الشوف. لم يكن يبدو من الجسر سوى دوائر الغبار التي
كانت تثيرها السيارات في الذهاب والعودة. اقترب من
الجسر، شاهد زملاءه، الكل في الانتظار، رفع يده، ظلل بها
عينيه، ذكره المنظر الذي خرج من أشعة الشمس الصفراء
الباهتة، بسنوات الجنديّة، فهتف لنفسه في صوت خافت:

- والله زمان.

اقترب منهم على مهل، على الجسر الحديدي خبط قدميه،
نافضا عنهما التراب العالق بهما من الطريق الترابي
الطويل، واصل سيره، ورفع صوته:

- السلام عليكم يا رجاله.

ترك ما بيده على الأرض، ولبس طاقيته، وأقبل على
الواقفين.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

تحولوا إلى دائرة، الصدور تحمل أيادي متشابكة،
والأفواه تتحرك بحماس وفرحة، العيون تدور في المحاجر
بسرعة، الكلمات تبدأ فاترة ولكنها تشتعل من بعضها، إنهم
يتكلمون، وللحديث مفردات مختلفة، حضرة الصول،
الشاويش، الدفعة، أسماء جديدة تطل عليهم، الموضوع واحد.
متاعب السفر، آلام الفراق، وتمني العودة إلى البلد، الجيش
وحياة العسكرية، الذهاب إلى المعسكرات ليلا، وربما التوجه
إلى الميدان، المرتبات، استعادة النشاط، العودة إلى حياة
الضبط والربط والطوابير والمناورات وليالي الخدمة
والنوبتية والسهر حتى الصباح.

خلال الحديث، سأل كل منهم الآخر عن طريقه،
وانفطر عقد الجماعة، إلى جماعات صغيرة. العيون معلقة
على نقطة في الأفق البعيد، حيث تخرج السيارات القادمة من
وسط الأشجار والحقول والتواءات الطريق، الكلمات تقال
متباعدة كسولة، مساحات الصمت تطول، الفتور يعلو
الوجوه.
إنه الانتظار.

[٣]

النار تشتعل. الماء يغلي. الغزالي ونورا يحاولان الغناء ويشعران بمشاعر غريبة

بدأت لحظة الوداع هكذا مصطفى أمام أمه، الوجه في الوجه،
العين مغموسة في العين، نورا تقف مبتعدة، الغزالي
يقترب من أخيه، يبدو ضئيلاً بين الأقدام:

- مصطفى رايح فين؟

- مسافر.

- فين؟

أمسكته نورا من يديه:

- الجهادية.

وجه الغزالي محاط بطبقة رقيقة من الأشياء التي لا
يفهمها، وعند سفر أحد من العائلة لا يكون للغزالي هم سوى
أن يطلب السفر معه، لا يدري عن السفر إلا أنه ذهاب إلى
الجسر، وانتظار، وركوب سيارة تسابق الريح. تشبثت
بمصطفى.

- خذني معاك.

هوت عليه يد أمه، تصميمه على السفر، جعله لا يشعر بألم الصفحة. مصطفى نظر إليه. قال لأمه: إنهما مسافران معا، نظر في عيني أمه، نظرة طويلة، قالت العيون من خلالها ما لم يفهمه الغزالي. على عتبة الدار جلس مصطفى، وطلب من أمه أن تدخل لتلبس الغزالي ملابس السفر، فالجلباب والقدم الحافي لا يصلحان للبنادر البعيدة. تباطأت أمه، سحبته إلى الداخل، استعجلها، شتمها، هجم عليها، ركلها بقدمه الصغير في بطنها، أكمل ارتداء ملابسه. عند حضوره كانت عتبة الدار خالية، فهم الغزالي سر النظرة المتأنية التي تبادلها مصطفى مع أمه.

وأدرك أنهم ضحكوا عليه. بكى، جرى، نورا أمسكته، حملته على صدرها، قالت له: إنه رجل البيت الآن، الوالد يرقد في المقابر قبلي البلد، الأخ الأكبر ناداه صوت المكن في كفر الدوار، ومصطفى، آخر الديوك، هجر العش اليوم.

في القاعة القائمة في قاع الدار، المطعمونة بمساحات الظلام، خلع الغزالي ملابس السفر، في ذهنه الصغير والبسيط، كانت آلاف الأشياء المعقدة والمتشابكة، غير القابلة

للفهم، تدور حول نفسها. خرج من القاعة، في وسط الدار. كانت نورا تجلس أمام الكانون، تشعل النار تحت إناء ضخم، جلس بجوارها، فبدت له أجمل بنات العالم كله. اقترب منها حتى التصق بها، رفع يده وأمسك ذقنها، وأدار بصرها ناحيته، ثبت عينيه في عينيها، وحراراً ماذا يقول، تلعثم وهربت منه الكلمات، ولكنه اهتدى إلى سؤال، كان يود أن يعرف لم ينم الأب قبلي البلد؟ ومتى يقوم من رقدته؟ ولم يقيم أخوه الكبير، والذي كان يظنه والدهم في كفر الدوار بمفرده؟ وما السبب في سفر مصطفى المفاجئ إلى الجهادية؟
آخر الأسئلة كانت:

- وإزاي أبقى راجل البيت وأنا...

سمعت نورا مقالته كلها. خبت النار داخل الكانون، فمدت يدها برفق. وأنزلت أصابعه الصغيرة، المحيطة بذقنها، استدارت واقتربت من فم الكانون، تحول فمها إلى كرة، جلد الصدغين مشدود على آخره، والفم دائرة صغيرة في حجم حبة التوت. استمرت تنفخ النار حتى طقطع الحطب، واشتعلت النار وكركر الماء من الغليان. إن غطاء الإناء يتراقص في هدوء ونعومة. وأثناء تحركه، فإن كتلا

من البخار الأبيض تخرج، اقتربت نورا من الإناء، رفعت الغطاء، نظرت بداخله، تاهت ملامح وجهها في ضباب أبيض، أعادت الغطاء إلى مكانه، فانقطع البخار.

ومن البخار خرجت له ملامح وجه أخته. على رموش العين تعلق قطرات الماء. الوجه ازداد احمرارا وحلاوة، قرصها الغزالي في يدها، فتذكرت ما قاله، هي نفسها لم تكن تعرف. سنوات عمرها ضعف سنوات عمره بالتمام والكمال. لم تذهب إلى مدرسة، ولم تخرج إلى الشارع، آخر حدود عالمها. البيت بحجراته أو الحقل بساقيته وأشجاره. شاهدت نعش الأب يخرج من بيتهم ذات صباح. في الحارة رأيت صفين من الرجال يجلسون مستندين إلى الحائط في صمت. الصقان لم تكن لهما نهاية. ومع امتدادهما كانت الرجال تتحول إلى نقط صغيرة باهتة. رأت أباها الأكبر مرة أو مرتين، يقال: إنه يعيش في كفر الدوار. له بيت وأولاد. وإنه ينام على سرير من النحاس الأصفر الأصلي. وإن زوجته من بنات البندر، بيضاء وسمينة، وعيناها سوداوان مفلجتان. لا تعرف عمله، يقال: سائق أو رئيس عنبر. رحل اليوم آخر رجال البيت. لا تدري السبب.

الباقى علمه عند الله. نظرت إلى الغزالي، احتارت ماذا تقول له:

- لما تكبر تعرف كل اللي بتسأل عليه.
خبط الغزالي يده على الأرض بجانبه، بنفاذ صبر،
توقعت أن يسألها، سؤاله القديم، متى يكبر، ومتى يعرف؟
الحديث عن مصطفى يعود إلى الشفاه:

- مصطفى خدوه الجيش؟

- ليه؟

- طلبوه.

- إزاي؟

- الحكومة عايزة كده.

- هو الجيش فين؟

السؤال والجواب كالكرة بينهما، ذكرته بالسنة
الماضية، أيام أن كان مصطفى كالضيف، يزورهم كل شهر
ونصف لمدة خمسة أيام فقط، يسافر بعدها، ثم عاد ليعيش
بينهم، أمس فقط طالبوه:

كلها عشر تيام ويرجع.

على أصابع يدها بدأت تعد الأيام العشرة، حددت يوماً بعينه، سيعود فيه مصطفى، لم يدرك الغزالي كل ما قيل، شعر بخوف غامض، صمت، وبدأ خياله يعبث بالكلمات والصور. مصطفى في الجيش يستقبل حياته الجديدة. سأل لماذا لم يأخذه هو بدلاً منه؟ قالت أخته: إنه مازال صغيراً، أمامه عشرة أعوام حتى يختم في المركز تحت الطلب، بعدها إجراءات طويلة، قالت له الكثير، كل ما قالته كان تصوراً ساذجاً لحياة المعسكرات. استشهدت فيما قالته بكل ما سمعته من مصطفى بعد عودته من العسكرية. الكلمات تنزلق من لسان نورا، لتسلم الغزالي لمتاهات واسعة. اقترب منها، وضعت يدها على رأسه، عبثت أصابعها بشعره، أحس بدفء الأصابع فوق جلد رأسه، فاقترب وطلب منها أن تغني له. أشارت إلى الكانون. وناره التي هدأت، بدأ يكوم الحطب بيديه. حاول أن ينفخ الهواء، فمه كان صغيراً، أمسك بطرفي جلبابه، حركهما، باعثاً بهما الهواء. مع صوت النار وهي تشتعل، وطققة عيدان الحطب، بدأت نورا تغني، وسأل صوتها العذب في أذنيه، كأحلى ما في هذا العالم الكبير. الأغنية كانت كلمات جندي، يطمئن بها قلب الأم قبل السفر.

- إياك يا أمه تبكي.

في الوابور مفرشين.

إياك يا أمه تبكى.

في الخيمة متجمعين.

وإن مت يا أمه ابعتي.

إبراهيم وبعده إسماعين.

أنصت لها. رماد الخوف يدور حول القلب، أعجبه الصوت، تنحنح، شرب قليلا من الماء ليسلك زوره، اقترب من أخته، انطلق صوته معها، ركز عينيه على عروق رقبتها المنتخفة، ورفع يده إلى رقبته. عروقه كانت أصغر من أن تشعر بها أصابعه. خرج صوته خجولا متقطعا، وبدا له اللهب الخارج من فوهة الكانون، بصيصا من الضوء في عتمة كبيرة، توقفت نورا عن الغناء، فوجد نفسه يغني بمفرده. شر بخجل حار كشمس بؤونة، فتوقف وغطى وجهه بيديه، وخبط أخته برأسه في صدرها. كور يديه وبدأ يضربها ضحكت، أبعدته برفق، كانت قطرة دموع عكرة تجول في مآقيها. رفعت ذيل جلبابها ومسحت به عينيها، إنها تنفخ النار من جديد. الغزالي يتجه نحو الباب. قرآن ما قبل

الإفطار يأتيه من مكبر صوت معلق فوق الجامع القريب.
وبين الآيات كان يصله أزيز مكبر الصوت واضحا. طلبية
الإفطار تتوسطهم، الغزالي لا يصوم رمضان. ولكن جلوسه
للطعام يسبق الصائمين أنفسهم. لاحظ الثلاثة خلو مكان
مصطفى. انتظروا حتى لامس آذانهم صوت المؤذن ينطق
بالشهادتين.

لم تمتد الأيدي للطعام. العيون الست ارتفعت،
نظرت إلى أعلى، إلى دائرة صغيرة تطل عليهم من سماء
خريفية صافية عميقة الزرقة.

- روح يا ابني ربنا يفتحها في وشك.

ويجعل لك في كل خطوة سلامة.

كلمة والثانية وتهج الصوت، الأحرف تخرج من
الفم هشة متآكلة، الوجه غابة من التجاعيد، الانفعالات التي
فشلت الأم في السيطرة عليها، حفرت أخدودا عميقا يمتد من
العين إلى الرقبة، وخلالها انزلقت أول قطرة دمع، انحدرت
بسرعة، تركت خلفها مجرى لامعا، بدأ لمعانه واطر مادية
المساء الذي بدأ يهبط عليهم في ذلك الوقت.

الغزالي يرفع يده نحو السماء، هكذا يفعل الرجال

ساعة الدعاء في المسجد، شفّتي نورا تتحركان بشكل لا إرادي، الغزالي يحرك شفّتيه، ويفهم الأمر كله على أنه دعاء من أجل مصطفى الذي يتناول إفطاره الآن في مكان لا يعرفه. دعاء الأم يتحول إلى نغمة حب واشتياق وخوف، يداها تقتربان من الوجه، تلتحم أصابعها بالأخايد والتجاعيد، فيدو جزء من الوجه، تمسح بهما عليه.

في صمت تناولوا الإفطار، في الأيام السابقة، كان مصطفى يشيع جوا خاصا حول الطبلية، حديثه عن الحقل والمبيدات والمحاصيل والبهائم ووظيفته الجديدة، سرعته في الأكل، أخبار البلد، حكايات الناس، تذكر الغزالي، أن أخته قالت له إنه أصبح رجل البيت حتى يعود مصطفى، فتوقف عن مضغ لقمة كانت في فمه، ورفع رأسه، وفعل كما يفعل الرجال في مجالس الصمت:

- وحدوه.

لم تستمع أذناه، هديرا إنسانيا، أقرب إلى التمتمة، يؤكد ألا اله إلا الله. نظرت إليه أمه نظرة مستسلمة واستمرت جلستهم، ككل جلسات الليالي السابقة، الأكل،

شرب الشاي، حضور شباب البلد، أصدقاء مصطفى، الكثير منهم لم يكن يعرف سفره، السؤال عن أسباب السفر ووقت العودة. وقبل أن يعطيهم الشاب ظهره ذاهبا، كان يعرض خدماته ونقوده القليلة ووقته وجهده.

- مصطفى أخويا.

صوت رشقات الشاي بين فم نورا وأمها يبدو مختلطا بأصوات رمضان، تأتي من الدور الأخرى والحارة.

الأم تحدث نورا:

- بكره لازم.

الحديث عن أعمال لابد أن تتم في الحقل. ري وعزق ورمي بذور ورش كيماوي ونقل سماد، وبعض هذه الأعمال لا يقبل التأجيل يوما واحدا.

- سمعتهم - قالت نورا - بيتكلموا عن الحرب

الليلة.

رمشت عينا الأم، قطعت عودة من الحصيرة التي يجلسون عليها؛ لكي تنظف به أسنانها، بعد طعام جاف خال من الدسم واللحوم. سوت العود، وقربته من عينيها، ومدت به يدها إلى فمها.

قالت والعود بين أسنانها:

- كله بإذنه.

[٤]

مسألة السفر في رمضان. والإفطار في الطريق والعموم في بحار الكلمات مع الأصدقاء القدامى

في الموقف انتظر طويلا، هبت من ناحية الجنوب
نسمة هواء باردة، فوضع يديه في جيبي أفروله، شعر
بالغربة لدى ملامسة أصابعه للأفرول، ضحك وتكلم كثيرا.
اقترب منه أكثر من رجل كانوا يقفون في الموقف، البعض
على سفر مثله، والبعض يسلي صيامه، الأصيل وقت تطول
فيه الظلال حتى تصبح خطوطا نحيلة ممصوفة، تتعرج
على الأرض. وفيه يكبس على الضهرية وسن □ لذيذ.
اقترب منه أحد تلاميذ المدارس:

- أهلا.

صافحه. ولكن المحارب القديم، يتعامل مع عالمه
بصمت جياش زاخر. حضرت السيارة، وقف على رفرها

الأيمن. هبت عليه رياح باردة، فوضع ما معه على سطح السيارة، ومن فوقه كان ينسدل بحر من الزرقة سارت العربة، الحقول والأشجار والناس تبتعد، خط الأفق البعيد يدور دورة بطيئة مركزها السيارة. في الغرب قرص الشمس أصبح نحاسي اللون، يبصق نورا باهتا، نصفه غطس تحت خط الأفق، والنصف الآخر يبدو بلونه النحاسي المشع. في التوفيقية، تكرر الوقوف، وضع يديه في جيبي الأفرول يتمشى. ركب السيارة من جديد. هذه المرة جلس بداخلها. في الطريق أذن للمغرب. عرف ذلك من ساعة راكب بجواره، وأكدته له حوارية قرية مرت عليها السيارة، فبدت خالية مهجورة من الناس. في كفر الزيات، كان عليه أن يفطر.

على مقهى صغير جلس، أخرج طعاما من ورقة كانت معه، جلس يأكل، امتدت يده إلى الطعام، شعر بنظرات الآخرين كإبر تنخره في جسمه، فتذكر نعمة الستر والبيت والجدران الأربعة وأمه. كان يأكل بمفرده. المغرب فات وقته. أسرع في أكله، توقف عن المضغ قال لنفسه:

- دلوقت بيشرىوا الدور التالت من الشاي.

بعد تسريحه من الخدمة العسكرية، قالوا له: اذهب إلى البلد. وسيصلك خطاب التعيين في وظيفة حكومية. ثماني سنوات قضاها تحت السلاح. كما يقول أهل الضهرية. في البلد، انتظر أسبوعا، في كل صباح، كان يرسل الغزالي إلى مكتب البريد، يسأل عن خطاب باسم مصطفى.

- لا يا بني. تكرر ذهاب الغزالي، فسأله وكيل

مكتب البوسطة:

- إيه الحكاية يا ولد؟

تشعلق الطفل بالمكتب، حتى شاهده الرجل، السؤال ظل معلقا، فالغزالي لم يستطع الرد، ذهب مصطفى بنفسه إلى المكتب. تذكر وهو سائر أنه ذهب إلى العسكرية لأول مرة، وفي ذقنه شعيرات متناثرة، لم يجز موسى عليها، عاد وقد اسود جلد ذقنه من غزارة منابت الشعر فيه. طريقة سيره تؤكد أنه أصبح رجلا. مصطفى لا يشاهده كثيرا خارج البيت. هكذا حال كل الذين يعودون إلى الضهرية في الحواري والشوارع، مصطفى نما جسمه، يكاد يخرج من جلباب قديم يرتديه. في المكتب، سلم وجلس، تنقلت الكلمات بين الرجلين. فهم مصطفى بعد جهد، أن خطاب التعيين،

سيرسل إلى مكتب التجنيد في المركز، تردد على إيتاي
البارود عشرة أيام. في كل مرة كان يسأل عن خطاب
التعيين. وهناك كانت أذناه تسمعان ردا قديما من فم رجل
عجوز:

- فوت بكره.

بين السؤال والجواب، أخذ وعطاء، ثرثرة عابرة،
الموضوع واحد، الوظيفة التي سيحصل عليها من الجيش،
أكد له الرجل صعوبة الحصول على وظيفة.

- معاك شهادة؟

- لا

- قبل الجيش كنت.

- مزارع.

- فهمت.

أفهمه الرجل، ستعطيه الحكومة أرضا.

- تأجير ولا تمليك؟

تاه رد الرجل وسط ضوضاء أصوات كثيرة. الأيام

أكدت عكس هذا، ذات مساء حضر خفير نبه عليه بضرورة

الذهاب إلى المركز، ومن نفس الرجل العجوز، تسلم خطاب
التعيين:

خفير على الحمامات العمومية، ومرافقها بالضهرية.
كفر الزيات، طنطا، بنها لم تكن آخر المطاف،
الطريق لا يزال طويلا. في محطة بنها، قابل زملاء الأيام
القديمة، صافحهم، اكتشف أن يده خشنة ومشققة، مغطاة
بطبقة من القشر الجاف، مثل أرض شراقي تطلب الماء من
فترة طويلة. رمى نفسه في أحضانهم، شلالا الكلمات يكون
جسورا من الألفة والمودة.

- وحشتوني..

- أنت أكثر..

الكلمات اللاهثة عن الحال بعد التسريح من الخدمة،
السؤال الملح عن أمرين، الوظيفة والزواج. مصطفى يعد
رب أسرة، شقيقه الذي سافر إلى كفر الدوار. لا يحسب،
زواج مصطفى مؤجل حتى الآن. لم تدخل البيت عروس،
هذا الأمر يحزن أمه.

ذكريات السنوات الماضية تعود، عقد الحكايات
القديمة ينفرط، كحبات مسبحة طويلة، بطول العمر نفسه،

الضحكات والبسمات ترقص على الشفاه. الكلمات ترسم مواقف حدثت لهم، لم ينسها واحد منهم. سألوا عن موعد القطار الذاهب إلى الجبهة، اكتشفوا أنه تفصلهم عنه ساعات ثلاث طوال، أقترح أحدهم أن يتمشوا في شوارع بنها تضييعا للوقت.

الجو معطر بذكريات وحكايا جميلة. مصطفى يسير معهم. رأى امرأة تجلس على أحد الأرصفة، فتذكر أمه. تعجب من أمره. كم تبدو أمه نائية عنه؟!

سأل أحدهم:

- إنما إيه أخبار الاستدعاء؟

رد واحد:

- اختبار كفاءة.

- إيه؟

- كفاءة نظام التعبئة الجديد.

في وسطهم شاب متعلم، مد أصبعه، أراح بها نظارته

على منخاريه:

- لا، دي مناورة، حا تبدأ الساعة ٠٠٦ الصبح لغاية

يوم الخميس.

- يعني بعد بكره.
- تمام، التسريح يوم الجمعة.
- أكمل واحد منهم:
- علشان نروح مصالحنا الحكومية السبت صباحا.
- حاول أحدهم أن يضحك:
- دي اللي دخلت مخك.

في القطار الحربي عثر مصطفى على مكان خال بجوار النافذة، جلس، تحرك القطار، أسند خده على يده. انزلت نسيمات هواء باردة على وجهه، أغمض عينيه، شعر برغبة في النوم، صوت اصطدام عجلات القطار مع القضبان انتظم في أذنيه. الظلام مستتب أمام العيون. من خلال العتمة، حاول أن يرى أعمدة التليفونات، ولكن الظلام كان شاملا، في داخل العربة، كتلة الأصوات، الكل يتكلم، الأذن لا تستطيع أن تلتقط حرفا واحدا مما يقال، مع شلال الكلمات رائحة دخان وأطعمة وملابس جديدة وعرق رجال. وسط عناق الضجيج مع صوت القطار، ارتفعت يد، نقرت على خشب المقاعد. الدقات تبدأ رتيبة، غير منتظمة خافتة، يحاول البعض أن يستمع. الدقات تعلو، يخرج من

الضجيج وصوت القطار لحن، يغنيه أحد المسافرين. الكلمات
عن مصر. يبدو أنه يرتجلها، تبدأ كلمات الأغنية مع خريطة
مصر. من الشمال. بلاد الأيام الباردة وسيول المطر.

يا الإسكندرية.. ياه.

والمرسي أبو العباس. ياه.

والحضرة.. ياه.

والمندرة.. ياه.

الهبوط جنوباً، عكس اتجاه النيل، الطواف بكل ما
تراه العين، الأيدي تصفق مع الدقات، الحناجر تغني معه.
يبدأ الصوت هادئاً من الكل. ومع كل كلمة جديدة يرتفع
الصوت. الأغنية كلماتها خشنة، غير منسقة، ولكنها تتحول
بطء إلى وسادة ناعمة من الحرير يرتاح فوقها القلب..
الصوت الجاف يصبح نغمة حب، توقف المغني كي يمسح
عرقه، حال الظلام دون رؤيته. صاح أحدهم:

- غن علشان نشوفك.

الغناء من جديد، الأغنية تحكي عن جندي ودع أمه
الفلاحة. ركب الحصان ونزل إلى الميدان، كان وحيد أمه.
أبوه مات منذ سنوات. قدما الأم لم تعرفا أي مكان سوى

بيتها. الجندي يحكي لأمه ما شاهده في السفر والترحال في
بر مصر. يقول إنه لولا العسكرية، ما صعد مع النيل إلى
الشلالات، ولا هبط معه حتى نساء الشمال اللينة الجميلة.
تصف الأغنية أرضا خضراء وصحاري جاثية وسط أنهار
الخضرة، وتنبعث من الكلمات عيون مفجلة، ترك الابن
عندها قلبه ودیعة، دون أن يحصل على إيصال يسترده
به. كان يحذو وهم يرددون وراءه، وعندما كان يتوقف، فإن
النكات تنطلق، عن أهل مصر. قالوا: مائة نوري ولا واحد
دمهوري. وقف أحدهم وصاح في الظلام. سألهم: إن كانوا
يعرفون كيفية إكرام الضيف، من طعام وتسلية ونوم. هو
وحماره بقرش صاغ واحد. اعترض صوت بأن ذلك كان في
زمان الرخاء القديم. أضاف آخر بأن هذا يحدث في دمياط
فقط. تحولوا إلى مجموعات صغيرة، التعارف بالصوت
واللمس وشم الرائحة وسط الظلام. أبطا القطار من سيره،
وقف. أطل أكثر من واحد من النوافذ، غمس وجهه في
الظلام، وعاد ليقول إن القطار أمامه تصليح في الطريق.
ولكنهم عندما توقف القطار تماما. وسمعوا صوت فرملة

عجلاته على القضبان، واهتزوا جميعا، وتكوموا فوق بعضهم، أدركوا أنها نهاية الخط.

وقفوا على الرمال، أضواء بطاريات حمراء اللون، تشير إلى الطريق الوحدات. لسان من الضوء الأحمر يعبر الوجوه بسرعة. وخلال المرور لا يبدو من الوجه غير عين أو أنف أو فم. ويعبره الضوء. حاول مصطفى أن يعثر على زملائه القدامى.

ولكنه اكتشف أن الأشهر العشرة أذابت ملامحهم الخاصة. سألوا أحد أفراد الشرطة، بكلمات قليلة أحياء في أذهانهم طريقا سبق أن قطعوه في النهارات الصحو والليالي المثقلة بمكعبات الظلام ساروا. بدت الجبال مساحات من العتمة. هبت ريح خريفية شموا فيها رائحة الشتاء المقبل. حملت معها ذرات من الرمال. فأحس بها مصطفى فوق خده الناعم.

كان مصطفى سعيدا. أحس بدفء لذيذ حول القلب، وبرغبة في أن يحكي وينصت له الكل. ارتعش لسانه. غاص في بئر فمه، لم يقدر على حمل شلال العواطف الراحشة بداخله، عجب مصطفى،

بحث عن بداية يومه في ذهنه فوجدها بعيدة، لم يجد بداخله أثرا لرهبة أو خوف، كاد يقول لزميله أنه سعيد، وإن كان لا يدري لم؟.

لهم زميل طويل اللسان. لا ينجو أحد من كلماته، وله قدرة فريدة على التقليد، توقف، أجبرهم جميعا على الوقوف، بدأ يتحدث.

- أول ما نوصل المعسكر دلوقت.

الصمت مؤكد، فهم يسمعون تردد أنفاسهم:

- الشاويش عبد الله يقف.

يقلد حركاته وكلماته، ينتقل إلى النقيب فتحي أركان حرب المعسكر، قائد السرية، القائد وهو في تقليده، ينتقل من الصوت إلى حركة، إنهم يشكلون دائرة حوله، يقتربون منه، يضيقون من عيونهم؛ لكي يشاهدونه، رغم الظلام. الليل يخبر عن آخره الآن، وقمر العشرة الأيام الأولى من رمضان يرتفع سابحا فوق صفحة السماء. وجواره نجمة أو نجمتان، ظهرت أجزاء منهما. مصطفى وزملاؤه يسيرون، وأثناء السير يتوقفون، يجلسون، الحديث

يتشعب كحارات قرية مصطفى، وحملت نسمة هواء ليلية رطبة، ضحكات وكلمات الرجال الذين يسرون ببطء.

انطفأت الكلمات، وأتى الصمت سريعا. وأطل كل منهم داخل نفسه، نشط ذهن مصطفى، بدأ يستعيد صورا شاهدها في سفره الطويل. كانت أشياء بسيطة وعادية. وجه فتاة صغيرة. فيه كل جمال العالم، لوح له من بعيد، من وسط أطار نافذة مفتوحة، والقطار يجري به. أم تجلس على مقعد في محطة قويسنا، يبدو أنها تنتظر القطار الذاهب إلى الإسكندرية.

تضع طفلها على صدرها. الطفل مستكن لحمة الثدي بين شفثيه. فزع الطفل من صوت القطار فأغمض عينيه. الهواء المشبع برائحة الخضرة والماء والأرض المرورية، يحمل له كلمات وداع المسافرين، على المحطات، في اللحظات الأخيرة وجه فتاة فاتنة، يبدو دائرة من النور فوق المقعد المواجه له. ركبت من طنطا ونزل هو وتركها في بنها.

إن هدوءا يترقرق في صدر مصطفى يبدو ممتزجا بدفء إنساني فرح.

اكتشف أنه تأخر عن زملائه، فأسرع في سيره كي

يلحق بهم.

[٥]

القلب يدمع قبل العين أحيانا.

أحاديث ومشاعر أصدقاء الغزالي ليلا..

والليل، الليل الشامل، المساء يصعد إلى السماء.
تشعر به واضحا، ولكنك لا تستطيع أن تراه أبدا. يأتي
الأصيل الرمضاني المستطيل الوجه. أخيرا يؤذن المغرب،
يجري الغزالي إلى البيت. ويكون ضوء النهار كما هو يمنح
المرئيات وجودا منفردا. لا يبقى الغزالي في البيت سوى
وقت الإفطار. يشرب الدور الأول من الشاي، آخر شقطة من
الشاي تصل إلى فمه وهو واقف. يشاهد من خلف زجاج
الكوب المغبش بقايا الشاي، مصطفى حبيب الفؤاد، وأمه
ونورا، يضع الكوب، يجري، فيصطدم بالطبليّة.

هذا المساء. شعر بحرج. سمع صوت الأطفال وهم
يلعبون في الحارة. نداءات يطلقها زملاؤه يعرفها الغزالي
جيّدا. مال على نورا اقترب منها، وضع فمه على أذنها. قال

لها: إنه يريد أن يذهب لزملائه، لم ترد عليه بنفس الهمس.
أشارت ناحية الحارة، انكمش داخل جلده عندما سمع صوتها
عاليا:

- (الباب يعدي جمل).

تحرك بهدوء، متحاشيا نظرات أمه. على عتبة
الباب، وضع ذيل جلبابه بين أسنانه، وانطلق يجري، سمع
صفارة وتصفيق يد، فرد عليهما بالمثل.

ليل رمضاني. ومشى بأفراح جدباء، بجوار ما يرويه
الآباء والأجداد. عن رمضان الزمان القديم. في الباحة التقى
بالأطفال. بدا الغزالي سعيدا ومهموما في وقت واحد. على
لسانه تزدحم الكلمات. وفي الذهن صور وعوالم ضبابية. أن
الأوان له، أن يتكلم، في الأيام السابقة، كان يستمع لكل ما
يقال، اليوم تغير الحال. سافر مصطفى إلى الميدان وإن كان
سفره عاديا. لقد سمع الغزالي من قبل، كثيرا من الحكايات
عن السفر؛ لحظة الوداع، السيارات الغربية، على نوافذها
ستائر مسدلة، الدموع تجري والقلوب والأأيادي تتعانق،
معبرة عن حنين غامض. المشهد الذي رآه الغزالي في بيتهم
وقت العصاري كان صامتا. الكلمات قبيلت بسرعة، لم

يفهمها. اندس بين الأقدام، وأطل بوجهه خارج البيت. الحارة كانت خالية. لا سيارة ولا مودعين ولا أبواب مفتوحة ولا حقائب كبيرة مربوطة من يدها بأوراق مكتوب عليها بلغات أجنبية.

اتجه الأطفال إلى مصطبة صغيرة مهجورة، جلسوا. لم يستطع الغزالي أن يقاوم رغبة في الكلام.

- مصطفى - اندفع قائلاً - راح الحرب. صوته كان رفيعاً كورقة السيجارة، خفته لم يناسب معاني الكلمات. نظروا إليه، بدا في جلسته أصغر كثيراً مما قال. كان يرتدي جلباباً مقلماً بالأزرق والأخضر والأحمر. على الرأس طاقيّة من نفس القماش، الفارق الوحيد أن خطوط الجلباب بالطول. تبدأ من صدره هابطة نحو الأرض. الطاقيّة خطوطها دائرية. تلتف حول الرأس بالعرض، الغزالي دقيق الأطراف. ضئيل الحجم. كانوا يسمونه (الولد بليه)، لولا تدخل أمه في الأمر خوفاً من أن يلتصق به ذلك اللقب بعد ذلك.

أكبرهم سناً ولد اسمه بدر، يعرف ما لا يعرفه أحد. يشرح لهم كل أمور الحياة الصعبة والمعقدة وهي كثيرة. بدر

في السنة السادسة الابتدائية، تعدى العاشرة بسنتين ويفصل بينه وبين الغزالي، أربع سنوات من العمر.

كان أول المتحدثين:

- لا يا عبيط.

صاح الغزالي:

- دا أخويا وأنا اللي موصله.

مصطفى راح العسكرية، مش الحرب.

غمس واحد نفسه بينهم:

- العسكرية هيه الحرب.

أشار لهم بدر أن يسكتوا.

- تفرق كثير خالص.

أصبح صوت بدر أكثر هدوءاً. إنه يجرب فيهم كل مفاهيمه ومعلوماته عن الحرب والقتال. والد بدر مأذون البلد، يذهب كل صباح إلى إيتاي البارود، وعند عودته وقت الأصيل. يشاهد الأطفال، تحت إبطه جريدة مطبقة، وعليها آثار عرق يده وبقع ونقط حبر. يؤكد لهم بدر كل مساء أنه يقرأ الجريدة في الليل، يفليها:

- هكذا - يؤكد لهم - من طفطق لسلامو عليكو.

- الحرب يا جماعة.

يقول لهم بدر: إن آخر حرب مرت بنا، كانت من ست سنوات. أغلبهم لم يكن قد ولد يومها. بدر كان في السنة الأولى. بمدرسة عصران عبد الكريم. ويومها تعطلت المدارس. وكانت ضد إسرائيل.

- إسرائيل.

ردد أكثر من صوت الاسم. توقف بدر، لامست عيناه وجوههم، فردا فردا.

- دي اللي سرقت مننا فلسطين.

حركوا رءوسهم في حيرة قال لهم: إنه كان يود أن يعرفهم مكان فلسطين. فلقد درسها في السنة الماضية. ولكن لا توجد خريطة.

- بكره تكبروا وتعرفوا.

الغيظ يأكل قلب الغزالي، ضاعت الفرصة. وها هو بدر يتكلم بدون توقف. قاطعه صوت:

- هو فيه بعد بلادنا بلاد؟

- بتقول إيه؟

استراح بدر في جلسته. رده كان على شكل حديث
عن مصر والعالم المحيط بها. بدر ينطق الكلمات بسرعة
كما قيلت له في المدرسة تقريبا. صوته يكتسب في آذان
المحيطين به معاني أخرى تسلمهم إلى حيرات جديدة.

سأله الغزالي:

- ومصطفى خدوه ليه؟

السؤال كان مفاجئا:

- شوف يا سيدي.

بعدها لم ينطق بدر ولا كلمة واحدة. تلعثم وأخذ
يكرر الكلمتين أكثر من مرة. حاشرا بينهما كلمات مثل.
أصل، إنما، يعني..

أكمل الغزالي:

- مصطفى ضابط كبير ورئيس الجيش كله.

انتفض بدر:

- كله إلا دي.

- والله مصطفى ضابط كبير:

- إيه؟

- سترته القديمة في البيت، متعلقة على الحماله،
وفيه شريطين سمر. أمي قالت دي علامة الضباط.

صوت بدر يعلو:

- مصطفى أومباشي.

رفع بدر يده مشيرا بأصبعين منها ليبدل على عدد
الشرائط ونوع الرتبة. احتار الغزالي. ولكنه قال:

- من فيكم له أخ في الحرب؟

صح بدر:

- العسكرية مش الحرب.

- الحرب.

العسكرية.

مد بدر يده، فأجلس الغزالي. شعر الغزالي
بالارتباك. العيون ترشه بنظرات لم يفهم معناها. رفع يده.
وكبس بها الطاقية فوق رأسه التي بدت ملامحها واضحة.
الرأس مستطيلة وليست دائرية، وكثيرا ما أضحكت زملاءه
منه. الكبار يقولون إن السبب في ذلك أن الداية سحبت من
رأسه وليس من قدميه. فاستطال شكله.

- الحرب لو

بدر يكمل حديثه: لو قامت الحرب، بلدنا هي أول البلاد التي ستعرف، طبعاً لا تعرفون السبب. سأقول لكم: في البلدة القريبة منا، ناحية الشرق. يوجد مطار كبير، فيه طائرات ومدافع وعساكر وجيش بأكمله. ما إن تقوم الحرب، حتى تنطلق الطائرات تعبر سماء البلد وهي ذاهبة تضرب إسرائيل. وفي هذه الحالة، من الواجب عليهم أن يصعدوا فوق بيوتهم لكي يحيوها، وهي في طريق العودة، قد تصل إلى الأذان، أصوات احتكاك عجلاتها بأرض المطار عند الهبوط فيه، وقد يضرب المطار فتهد أصوات الانفجارات البيوت وربما تسببت في تصدع المباني وانهيار القديم منها.

- أنتم لسه صغار. في الحرب اللي فاتت....

الأطفال يشربون كلماته. يغمسون آذانهم في حروفها وهو يحكي، شاهد أهل البلد مرة جسماً صغيراً. يندفع نحو الأرض، راسماً خطاً في الأفق على شكل نصف دائرة من الدخان الأسود، يبدأ الخط في الاتساع، ليتحول إلى مساحة واسعة من الدخان. الكل خمن، والكل تحدث. والكل قال: دا صاروخ. قنبلة طائرة. وقعت الطائرة شرقي البلد. اعتقد الناس أنها سقطت في النيل. بعد أن جروا نحوها. اكتشفوا أن

البصر خداع وأنها نائمة فوق الشط الشرقي. من يومها والكل يعرف حكاية المطار الكبير المقام وسط الحقول. انطفأت الكلمات على ألسنتهم، والصمت غريب على عالمهم. بدعوا حديثا عن رمضان. ولكنه لم يستمر كثيرا قال واحد:

- نتقابل في السحور قدام أبو نشابة.

الوقت متأخر، عرفوا ذلك من الشوارع والحارات التي أصبحت خالية من الناس. وأبواب الدكاكين التي لا يقف عليها أحد. الشوارع مضاءة. أول رمضان يأتي بعد النور. تفرقوا، في الطريق شعر الغزالي بحنين حار لمصطفى، في الأماسي. كان مصطفى يمر عليه، يأخذه، يعطيه يده اليمنى. فتشتبك اليدان. يبسط مصطفى من سيره. في صمت كانا يقطعان الطريق إلى المنزل. الغزالي يسير بمفرده. طوح يديه. فبدا خياله أمامه مضحكا. شبكهما خلف ظهره. أبطأ سيره. نزل إلى قاع الشارع وسار فيه. باب بيتهم كان مفتوحا. تطل من داخله ظلال الأشياء. على لسان الضوء المنبعث من اللبنة الصفيح. أتت الكهرباء ولكنها خاصمت منزلهم. العين بصيرة واليد قصيرة. كانت أمه جالسة مع

أخته. بدا في وقفته على العتبة، ضئيلاً، خبطت أمه على صدرها، بهتت أخته. ظل واقفاً في مكانه، طفحت عيني أمه نورا ولمعانا:

- الخالق الناطق مصطفى في وقفته.

جرى الغزالي إلى أمه، رمى نفسه في حضنها الذي كان دافئاً ولينا في الزمان القديم. مدت يدها. رفعت بها وجهه إليها. شعرت أن مصطفى ينظر إليها من خلال عيني الغزالي ينبض القلب نبضة واهنة. العين حفرة بلا رموش. جف منها ماء الحياة. ولم تعد تسعفها بقطرات الدمع الدافئة. من قبل كان المرحوم والدهم يشربها بنظراته من خلال عيني مصطفى. الآن يلمس مصطفى قلبها المتعب من تحت رموش الغزالي. وضعت رأسه على صدرها. نورا تخفي ارتباكها، تحاول أن تبدو مشغولة. رفع الغزالي رأسه، نظر نحو أمه:

- مصطفى جاي امتي؟

عدت على أصابعها:

- بعد تسع تيام.

- على فكرة. دا ما رحش الحرب.

- مين اللي قال لك؟

- الناس كلهم، أصل الحرب غير العسكرية.
حملته بيدها، أجلسته على الأرض وقامت، بلع كلماته
وحبسها في صدره، أغضبه أنها لم تستمع لكل ما قاله.
اقتربت نورا منه، كان يطل من داخل طفولتها العابثة أنثى.
توجد أشياء كثيرة لا يفهما الغزالي. اقترب منها، أمسك
بيدها، ودخلا المنذرة. على الحصيرة المتآكلة، تربعت.
وضع رأسه على فخذها. وبدأ يحكي، قبل الحديث. أكد لها
أن ما سيقوله سمعه الليلة من أكابر البلد. ابتسمت قبل أن
تسأله. وكيف جلس معهم؟ رفض الإجابة على سؤالها،
وعندما قال لها إن الحديث كله كان عن مصطفى، ارتخت
رموش العين المشرعة. وتحولت خطوط الغبار المستقيمة
على الوجه الجميل، إلى أنصاف دوائر تهتز مع الكلمات.
الغزالي يحكي، ونورا تجوس بيدها على جسمه
الصغير، صوته يرتفع، ويستخدم يده في الحديث كثيرًا،
ترتفع رأسه أحيانًا، يقرب فمه من أذنها، ليقول لها سرا ما.
في منتصف حكايته. غلبه النوم. توقفت الكلمات على
لسانه. وأغمض عينيه. في وسط الدار. كانت أمهم تنزل
الحطب وتحضر العجين وتفرش الأجوالة القديمة على

الأرض. ارتفع صوتها ينادي نورا. رفعت نورا رأس الغزالي، شددت ملابس قديمة من فوق الحمالة، كورتها ووضعتها تحت رأسه، أغلقت باب الدار. ووضعت اللمبة فوق رأسها، واتجهت داخل البيت. اقتربت من أمها. كانت تطل من فوهة الفرن، ألسنة لهب تتراقص. ومن الخارج كان يأتي صوت يتلو آيات القرآن. وصل الصوت. ولكن نسّات الخريف هبت فبعثرت بقية الآيات.

[٦]

ثبت أن دعاء الأم حجاب.. فصل فيما جرى لمصطفى بعد وصوله إلى المعسكر بالسلامة.

خطر، منطقة مناورات، ممنوع الدخول، أبرز تحقيق شخصيتك، ممنوع التصوير، منطقة عسكرية، احذر، حقل ألغام، قف للتفتيش، المناطق المحاطة بالأسلاك الشائكة، دوريات الشرطة العسكرية، قاعات الطعام الواسعة. خيام السكنى، مكاتب الاستعلامات. سيارات الإمداد بالماء والوقود.

في البداية، فوجئت العين التي ألفت الظلام. بنور بطارية يسلط عليها. رفع يديه اليسرى، غطى بها العين. وباليد اليمنى أخرج أوراقه. أمر الاستدعاء. كعب استمارة السفر، بطاقة شخصية. كشف مهمات:
- اتفضل يا دفعة.

بعد نزولهم من القطار الحربي. ساروا على الأقدام. في الزمان القديم كانت تنتظرهم سيارات، خلال السير. ذكرى الأيام البعيدة وسادة يستريح فوقها القلب. العين نصف مغمضة، والقدم تضرب على الرمال بهدوء. أمامه مساحة واسعة من الظلام. المسافة طويلة. لا بد من الوصول. الخيام والجبال. والمنشآت العسكرية حولهم، أشكال مبهمّة، تبدو في الليل، أشباحا غير محددة الملامح. السجائر تدور مع الأيدي راسمة نصف دائرة. تحدثوا عن المبيت في المعسكر، طابور التعيين وقت السحور في الليالي الشتوية الباردة. نوبتجيات الخدمة.

أول الأصوات كانت خافتة:

- بكره اليوم الأول.

أكمل آخر:

- كلها ثلاث تيام.

نظر كل واحد منهم لجاره. في الظلام يبدو لمعان العيون واضحا. ارتفعت الأيدي تربت على الظهر. واقترب شاب من آخر. وخذش الصمت صوتاً يقول:

- والله زمان.

بعد ثماني سنوات سرحت من الخدمة. من عشرة أشهر. وصل الأمر إلى الوحدة ذات مساء بسيطا وسهلا

وواضحا. كان في الأمر كلمة تقول: "تقرر تسريح المحاربين القدماء من الخدمة" أحسست بالغضب من كلمة القدماء. سنوات عمري لم تتعد الثامنة والعشرين، ورغم هذا أنبتت كلمة القديم، إحساسا بالكهولة والعجز قبل الأوان. لحظة تسريحي من الخدمة. فتشت بداخلي عن إحساس ما فرح، دهشة، كان بالداخل هدوء وراحة لا طعم لهما. في الأيام الأخيرة من سنة ٥٦٩١ سافرت إلى الإسكندرية، وبعد رحلة طويلة عدت إلى بلدتي. الاسم والرسم والبيانات والملاح هي نفسها. الدم واللحم والأعصاب ونظرات العيون تغيرت كثيرا.

وصلنا إلى الوحدة. الظلام ستارة تحول دون الرؤية. على البوابة، جندي حراسة في يده سيجارة، ارتفع ضوءها، فأدركنا أن يده تقترب بها من فمه. أصبحنا أمامه. سحب نفسا طويلا، فانبتت كرة من الضوء الأحمر الخافت، تعرت تحتها الوجوه والعيون والملاح فعرفنا بعضنا، هوت

السيجارة بجانبه، فتاهت الملامح مرة أخرى، جعلته معطرا برائحة إنسانية رغم وحشة المكان، قمنا بجملّة إجراءات، مكاتب التسجيل، معسكر الاستقبال، الاسم والعنوان، أقرب الأقارب، وزعوا علينا استمارات بيضاء، نظرنا فيها، حاولنا قراءتها. قيل لنا، المطلوب أن يدون كل منا اسم من تصرف له مكافأة المستحقات المالية في حالة الاستشهاد، ومكتب البريد، أو البنك الذي تحول عليه المرتبات أثناء العمليات، ضحك واحد منا:

- قال الاستشهاد قال.

سبق أن دوننا نفس البيانات من قبل. في النهارات وخلال الليالي، ووقت الغروب وكتبناها على مكاتب، أو أسندنا الورق على الحيطان، أو فوق أرجلنا في هذه المرة ران علينا صمت ونحن نكتب، لم يكن هناك سوى همهمة من يحدثون أنفسهم بأحرف من كلمات. وأجزاء من جمل لا يفهمها سوى صاحبها وحده دون سواه. أحسست بالضهرية وأمّي. رأيت الغزالي واضحا. نظري إلى بعينيه الرائعتين من خلال أسطر الاستمارة. النظرة كانت طويلة. أحببته لحد العشق. مددت يدي لأكتب بقلم كويبا بللته بقمي اسمها في

خانة درجة القرابة. دونت أمي، شطبتها وكتبت الكلمة التي يحبها الغزالي: والدتي، ارتجف بداخلي شغف رقرق، وأنا أدون بوسطة الضهرية التابعة لمكتب بريد الضهرية، محافظة البحيرة.

الكل يكتب، يحول ما بداخله إلى خطوط متعرجة، أودعوا فيها ذوب قلوبهم، نظرت في الورقة، كان الخط مائلا متعرجا، واضحا في أماكن، باهتا في أخرى. استغرقت في النظر إليه. بدت خطوطه كقنوات حقلنا والجسر المحيط به. رحت أسير بأصابعي على الخطوط، ها هو حقلي، أرض الجيران، الساقية، الترة، مساحة البرسيم، الأرض السوداء التي بذرت فيها القمح قبل استدعائي بثلاثة أيام. سلمت الورقة. وخرجت إلى عنبر آخر.

الليل يتقدم ولكن لا يزال أماننا عمل كثير:

- فرش متاع.

حملت إلي □ الكلمة رائحة الأيام السابقة. فتحت حقيبتني، ووضعت مهماتي على الأرض، الصف يبدو طويلا والضابط يتوقف كثيرا أمام كل فرد ليراجع مهماته. في اللحظة الأولى أخذنا الأمر بجدية. بعد قليل أصبحنا جنودا

قدامى بالفعل. بدأ كل منا يسأل الواقف بجواره، أن يسلفه الناقص من مهماته. حتى يمر دوره في التفتيش، ثم يردها إليه. تنبه الضابط للمسألة. كشف أمرنا غمزات العيون والبسمات والضحكات. أمسك بزميل يحدث آخر بالإشارة، يطلب منه ملعقة. لم يكن من السهل النطق بالطلب؛ ولذا حرك يديه ممثلاً له. لكي يفهم طلبه. وبنفس الطريقة تصرف معنا الضابط. بدأ التفتيش من أول الصف. الضابط أمامي رغم وقوفي في ذيل الصف. سؤاله الأول كان القرص المعدني. كان معي. أخذه، قرأ بياناته بصوت مسموع: الاسم، الرقم العسكري، تاريخ التجنيد، تاريخ الميلاد، فصيلة الدم. كنت أرد بعد كل بيان، مؤكداً صحته، أعطاه لي، لففته في يدي، ومددتها لجيبي، نهرني بصوت عال. وبلهجة جافة:

- القرص يوضع هنا.

حول اقترب مني، أمسك به. حول السلسلة المعلق فيها، إلى دائرة صغيرة بين يديه رفعها، وضع السلسلة رأسي. وتركها تهبط وتلتف حول رقبتني. أحسست أن الجو بارد، عندما انزلق القرص فوق صدري. تحت ملابسني الداخلية، مسترخياً في مكانه، بين شعريات صدري الغزيرة.

- القرص لا يخلع مهما كانت الأسباب. لو
استشهدت هو الدليل الوحيد لمعرفة شخصيتك.
وجه الضابط قريب من عيني، ارتعش شيء ما في
حدقتي عينية. وهو يستدير رفعت يدي:

- حاضر يا أفندم.

ذهبنا إلى المخزن. استكملنا الناقص من مهامتنا.
وأتى منتصف الليل سريعا. أعطوني بطانيتين وزمزية.
وخوزة وجربندينة، وغيارا داخليا، وأفرولا جديدا، ورباطا
ميدانيا معه بعض الإسعافات الأولية. وقفنا للتميم علينا.
صمتنا، كان كل منا يلتقي بذلك الحضور المفعم بداخله الذي
لا تعبر عنه الكلمات، تصلني بعض الأصوات خالية من
حماس أول الليل. كنا نقف في أرض الطابور. الضابط ينادي
ومن يسمع اسمه يرد عليه. يحمل مهماته. بعد أن يعرف
فصيلته وحكمداره. يتحرك نحو الخيام، يتحدد وجوده عندما
يغرق في بحار الأضواء الخافتة.

يبدو ظله مستطيلا ببطء ووراءه. يخرج من العتمة
بالتدريج. القدمان في حذاء عسكري لم تألفاه بعد. أفرولا
واسع تتوه بداخله ملامح الجسم، يداه ترتفعان كي تسندان

مخلة مهماته الذي يضعها فوق كتفه، الرأس والطاقيه تاهت
بجوار المخلة. الخيمة المخصصة له. يعرفها؛ ولهذا فهو
يسير بلا دليل.

الضابط ما زال ينادي. طال الوقوف فأمرنا
بالجلوس. الصف يتناقص والأصوات التي ترد عليه، تختلف
من فرد لآخر.

الجالس بجواري زحزح مخلته على الأرض، مقتربا
مني، فشممت رائحة الرمل والتراب، لامست مخلته مخلتي،
أصبح بجواري، مد قدمه، خبط بها قدمي، تصورت أن ذلك
غير مقصود، كنت أتابع الأسماء، منتظرا سماع اسمي، مد
جاري يده. لكزني بها. نظرتي إليه كانت مزيجا من الغضب
الهادئ وحب الاستطلاع. اقترب مني أكثر، همس لي:

- دي الحكاية.

لم تصلني جملته كلها.

- بتقول إيه؟

اقترب هذه المرة أكثر، كادت شفاه أن تلامسا أذني، عندما
نطق كلماته الأربع أحسست بدفع أنفاسه ورطوبة
بخار فمه واضحة على جلد أذني:

- دي الحكاية باين عليها جد.
لم أرد عليه. اقترب أكثر، صنع من يديه بوقا،
وصلني همسه:

- الاستدعاء مختلف عن المرة السابقة.
وضع يديه على كتفي، وأدار وجهي ناحيته، فعرفني:
- مصطفى؟

- نعم.
- مالك؟

قبل أن أفتح فمي لكي أرد عليه، سمعت اسمي
مسبوقا برتبتني:
- أفندم.

رأسي تحت المخلة، نظراتي تصافح وجوه الجالسين
في انتظار دورهم. لمعان العيون يبدو خطأ طويلا بلا نهاية.
رآني زميل قديم، أمسكني من قدمي، توقفت ونظرت إليه.
فقال لي ضاحكا:

- مبروك عليك خيمة الصف ضباط.
في الخيمة وضعت مهماتي، لم أنم، لكل مكان جديد دهشة
وفرحة، ورائحة خاصة، ذهبت إلى الفضاء الواسع

أمام خيام الإدارة؛ حيث كنا نجلس طوال الليل نتكلم. وجدت زملائي، تمكنت من رؤية وجوههم رغم خفوت الضوء. اقترب موعد السحور. النوم ثم الاستيقاظ متعبا، يبدو أن الكل فضل السهر مثلي. الملابس جديدة خشنة، والوجوه متجهمة. الكلمات الخارجة من الأفواه قاسية، كاكية اللون، والإحساس والمعنى، تكلموا. الحديث يفتح في القلوب نبعا رقراقا. وملامح الوجوه تسيل ليونة. الكلمات ترق، تنبت بداخلها قلوبا تنبض، تصلها بالأذان أوردة بداخلها دم حار ملتهب هبت نسمة هواء باردة. فتمدد بداخلي حنين للبيت وللنوم فوق مراتب وتحت أغطية ثقيلة.

كان الضابط قد انتهى من التتميم علينا. عاد إلى خيام الإدارة. بين يديه أوراق ودفاتر وسجلات، وجدنا فابتسمت ملامح وجهه:

- أهلا بالزملاء.

وقفنا، غمغمت الأفواه، اقترب منه واحد منا:

- كل مرة، كنت بتقول أهلا بالضيوف.

كان قد تعدانا في سيره، توقف واستدار إلينا:

- وهيه تفرق؟

- كثير .

قال الضابط وهو يتجه ناحية الخيام:

- ضيف، لما تحضر يوم، وزميل لو طالتي الإقامة.

على باب الخيمة، خبط الضابط حذاءه الضخم مرات

نظر إلينا:

- أتمنى لكم إقامة سعيدة معنا.

الجلسة الآن على شكل دائرة. اقتربنا من بعضنا.

دارت في المحاجر حبات عيون أذبلتها الرغبة المؤجلة في

النوم. مر علينا جندي □ قديم، نادينا عليه. اقترب منا، فشمنا

رائحة النوم في ملامحه، عرفنا، فتحول إلى نراعين

مفتوحتين لنا. سألناه:

- إيه الحكاية؟

- حكاية إيه؟

قاطعنا:

- لا..

جلس بيننا على الرمل. كانت في يده قروانة وكوب

للبلستيك، ويطل من جيب أفروله نصف رغيف، وضعهم

بجواره:

- عايزين نفهم.

استراح الجندي القديم في جلسته، وبدأ حديثه،
أنصتنا. الكلمات تخرج من فمه على شكل أسئلة، لم تكن
شرحاً.

- دلوقت إحنا إمته؟

عشنا الأيام القديمة:

- العشرة الأولى من أكتوبر.

أكملت:

- والعشرة الأولى من رمضان.

رفع الجندي القديم يده:

- وأكتوبر بداية فصل إيه؟

جاء الرد على أكثر من لسان:

- الخريف.

تمهل في طرح سؤاله الجديد، دار بعينه علينا فرداً
فرداً، تحركت شفتاه ببطء.

- نسيتم مناورة الخريف. لازم تشتركوا فيها؛ لأنها

أحسن من أي تدريب حتى ولو كان بالذخيرة الحية.

الرءوس تقترب. الأيادي التي كانت متجهة نحو الأفواه. وبين أصابعها سوائر توقفت في منتصف المسافة، بدءوا في استيعاب ما قاله.

أشار الجندي القديم إلى رأسه:

- هنا فيه مخ.

لوح نحوهم:

- المدنية أكلت العسكرية اللي فيكم..

ضحكنا وقلت:

- دي الحرب المرة دي.

قال الزميل القديم:

- على الأقل كانوا الضباط عرفوا.

ظهر على الوجوه اقتناع بحديثه. سألهم:

- طيب النهارده إيه؟ - أول

ساعة من الخميس ٤ أكتوبر. حا افكركم مع

أول ضوء من يوم السبت الجاي. حنبتدي المناورة.

من داخل المعسكر، لامس أذانهم صوت البروجي.

خرج من صمت الليل خافتا؟ غريبا على الأذان. بدأ يعلو.

رقصت أحرف الكلمات على شفاهم. بدأ بعضهم في الوقوف.

البروجي يعزف نوبة جمع لطابور التعيين. ها هو وقت السحور. قاموا، اتجه كل منهم إلى خيمته. أخرج منها أدوات الطعام التي لم تستعمل بعد. اتجه مصطفى ناحية المطبخ الميداني الصغير. شم رائحة رمل. لامست وجهه بعض حباته. نظر أمامه، فشاهد سحابة من الغبار. اقترب منه زميل آخر نظر نحوه. من خلال حبات الرمل. وصوت الأقدام. ونداءات الجنود..

سمعه يقول:

- اليوم الأول سيكون صعب. بعده تهون كل الأمور.
رفع مصطفى يده. كان يمسك بها القروانة والكوب،
لوح بهما قائلاً:

- دا صحيح فعلاً.

أتى الفجر، له ذيل أحمر. عند خط الأفق البعيد.
انتشر ببطء على صفحة السماء. التقط نجوم السماء.
المتناثرة على سطح السماء. كالحب من فوق أرض الجرن.
في الطابور وقف مصطفى ينتظر دوره؛ كي يصرف تعيين
السحور.

[٧]

عن الرقم سبعة. الحرب. الطائرة. شجرة

وت ثم السبب في وقوع الغزالي على

الأرض فجأة

قريتنا تكره الأرقام الزوجية، لا أحد يدري السبب في ذلك، الكبار يقولون إنها دليل شؤم، الأرقام الفردية ذكرها يسيل على ملامح الوجوه ليونة، ويمنح القلوب راحة. عندما يبدءون في العد. يقولون: "الله واحد" يخشن الصوت عندما يكملون "مالوش ثاني"، تعود الراحة إلى الصوت والوجه وهم يهمسون: "الحبيب ثالث الأنبياء".

الرقم سبعة مرسوم فوق القلب. وفي حياتهم البسيطة. تكون الأشياء جميلة لارتباطها بذلك الرقم. يعدون الأيام بالأسبوع. ومولد سيدي الأربعين يكون أسبوعا. والسوق الكبير يقام في البلد يوم السبت من كل أسبوع. عند سفر أحد أبناء البلد. ينشغل الفكر والبال عليه. الحنين لا يكوي النفوس

إلا في اليوم السابع. بعد أن تستدير الليالي والنهارات مكونة سبعة أيام.

- زي النهادرة كان سفره.

في اليوم السابع فقط، تدرك الضهرية أن أبناءها سافروا وأنهم غابوا. وفي اليوم السابع تدرك أنها تحب كل ما فيهم حتى الشقاوة واللعب والجري.

- الغريب طالت غربته.

في اليوم الثامن تبدأ الضهرية في الحديث عنهم. أنهار الكلمات التي تقال تنبع من بحيرة واحدة. وكل الجمل تبدأ بهذه الكلمة:

- يا ترى.

ينطقها الأفندية "يا هل ترى". والمعنى واحد على كل لسان. طبلية الإفطار والاستيقاظ من النوم على دقات السحور، أوقات ينبت فيها أبناء البلد من لحظات الانتظار.

- يا ترى بيظفروا فين دلوقت؟

التساؤلات الخارجة من أفواه تمضغ الطعام ببطء.

وتكون من النساء عادة. أما الرجال فيتصنعون الجد:

- زمانهم في وحداتهم زي زمايلهم.

ويرد طفل صغير:

- يا بختهم.

يظهر الرجال عدم المبالاة، يقفون في وجه الضعف النسائي الجارف، ولكن شيئاً ما بداخلهم يخونهم، الدموع تدق جدار العين. الرجل رجل. والجلسة حول الطبلية توشك أن تنتهي. وبعدها يخرج إلى الجامع. أو الدكان وهناك يفعل ما يحلو له.

مساء الثلاثاء، سافر مصطفى. مر الأربعاء والخميس والجمعة. أدركت أمه أنها أصبحت رجل البيت من بعده. فقررت القيام بالعمل الذي كان يقوم به. ذهبت إلى الجمعية، ختمها كان في جيبها، أخذوه منها. غمسوه في الختامة، وختموا به أوراقا كثيرة وأعطوها الكيماوي، ظلت في الحقل طول النهار. قالت نورا مساء اليوم الثاني لرحيل مصطفى الغزالي إنها عندما ذهبت لأمها في الحقل. وجدتها تربط وسطها وتلف رأسها بالطرحة، وتمسك الفأس وتعمل. من بعيد خيل لها، أن رجلا يلبس جلباب امرأة يعمل في حقلهم. اقتربت منها فاكتشفت أنها أمها.

في الصباح، فتح الغزالي عينيه، فوجد خطأ من ضوء الشمس، يبدأ من رأسه، ويمتد مع جسمه وينكسر قرب الحائط. الوقت هو الضحى، ومن قبل حاولت نورا أن توقظه مبكرا مثل كل يوم، أتاه صوتها مختلطا بصياح الديكة:

- حا تتأخر عن المدرسة.

قال لها، وهو تحت الغطاء: إن جميع المدارس في القطر كله. قد أغلقت ابتداء من اليوم بسبب الحرب. هزته نورا:

- وطبعا قلت بركة يا جامع.

أغمض عينيه ولم يرد عليها، وإن كانت كلماتها قد ذكرته بحكاية الرجل الذي لم يذهب للصلاة أبدا طوال حياته كلها وهو لا يصلي. وذات مرة أرغموه على الذهاب للصلاة. راوغ وحاول الهروب. ولكنهم ساقوه، فوجدوا الجامع مغلقا. فهلل، ومن يومها كان المثل. تصله أصوات كل صباح، مناجاة أمه للجاموسة، اصطدام رأسها بالمدود. يتلاشى الصوت، فترة من الهدوء يتأتى بعدها صوت شرشوب اللبن واصطدامه بقاع الشالية، تتجه أخته إلى قفص الدجاج، تفتح الباب الصغير، تنطلق، ويصبح كل شبر في

البيت مباحا لها. أصوات المنازل الأخرى. نهيق حمار، نباح كلب، صوت رجل يحدث زوجته، قبل ذهابه إلى الحقل. قام الغزالي، دخل غرفة المعاش، أغلق الباب خلفه، تناول إفطاره وهو واقف، رمضان هو الذي منعه من الأكل في أي مكان آخر. الغزالي لا يصوم وإن كان يسبق الكل إلى الطبلية وقت المغرب. وقبل أن ينام يمسك نورا من يديها، ويحلفها بكل الذين ماتوا وبشرف الذين لم يموتوا بعد. وبمقام سيدي صلاح أن تصحيه في السحور، وإن كان لا يأكل كثيرا. لقمة أو لقمتين. وينطلق بمجرد سماعه صوت طبلية المسحراتي.

يوقفه الباب، لا يستطيع أن يفتحه، فالوقت ليلا الباب مغلق بإحكام خوفا من أولاد الحرام. يفتح له مصطفى، وينطلق كي يلحق بالمسحراتي.

كان إفطار الغزالي، من بقايا سحور الليلة السابقة. هكذا تعود في رمضان. أكل حتى شبع، لبس الجلباب المقلم وكبس الطاقية حول رأسه. ودس قدميه في حذاء قديم. اليوم عطلة. والغزالي يفهم المطلوب منه دونما كلمات. سيذهب إلى الحقل. أركبته أمه على الحمار. وأعطته في يده مقود

الجاموسة وأطلقت الماعز. سارت الحمارة، فهي تعرف الطريق، الحارة ثم الشارع وأخيرا إلى دايير الناحية. سمع من راديو موضوع فوق بنك بقال، أناشيد وأغاني عالية انتهى إلى دايير الناحية، وخلف البلد وراءه، وأصبح على الطريق الذي يوصله إلى الحقل.

الأمس كان نصف يوم فقط، في طابور الفسحة أتى الناظر بشخصه، وقف في منتصف المربع الذي يكونونه بوقوفهم وتحدث معهم. لم يصل صوت الناظر إلى الغزالي. شعر بالواقفين حوله يصفقون فصفق معهم. بعد ذهاب الناظر. عرف من التلاميذ الكبار. أن المدرسة ستغلق وأن الحرب قامت. تساءل:

- الحرب؟

لوح طالب بالسنة السادسة في وجهه:

- دي قايمة من يوم السبت.

حسب الغزالي الأيام في ذهنه:

- يعني من أول امبارح.

كاد التلميذ الكبير أن يضربه:

- شاطر، عرفتھا لوحدك.

حمل كيس كتبه وخرج من الفصل. في الفناء كان الطلبة قد تحولوا إلى حلقات متناثرة يتكلمن، اتجه ناحية الباب الخلفي. سار بجوار السور الخارجي. ومن فتحاته كان يرى الساعة، وهم يرفعون الدكك والكراسي. يكومونها في أركان الفصول. ويعلقون على جدران الفصول لافتات كبيرة، لم يميز المكتوب عليها، على باب المدرسة، شاهد الغزالي، ضباطا وجنودا. ذكروه بالغالي مصطفى. كان الناظر معهم. الحديث بينهم يدور بصوت عال. الأيدي تشير والأفواه تتحرك والملاحم تضحك. وحول الباب كانت سيارات عسكرية تقف. قال الأطفال. أن المدرسة تحولت إلى معسكر. وقال آخرون، بل مستشفى عسكري. طفل أكبر منهم سمع ما يقولون، فرماه بالجهل، وعدم الفهم. قال إن المدرسة أصبحت من اليوم قيادة لقوات المنطقة.

صاح الأطفال في صوت واحد:

- إيه.

- قيادا.

أعاد نطق كلمات جملته ببطء هذه المرة. وشرح لهم الحكاية. الكلمات تسقط فوق أذن الغزالي، ولكنه لا يفهمها.

انضم إليهم طلبة المدرسة، كونوا كتلة كبيرة، تتحرك وتتكلم وتسير وتتراحم ببطء، المهم هو الحديث؛ ولذا فإن أقدام الكبار تدوس أقدام الصغار، والأيدي في اندفاعها خلال الحديث ترطم وجهها أو تطرف عينا. وجد الغزالي نفسه خارج الدائرة. بحث عن بداية الحديث. فوجدها بعيدة، الهواء يحمل له كلمة، ويطير أخرى. حاول أن يرتب الحكاية في ذهنه كي يحكيها لنورا، بعد عودته إلى البيت. لم يكن ذلك سهلا عليه. سمع كلمات عن القوات المتمركزة في المنطقة. المطار. إسعاف الجرحى، الحرب الشعبية، الدفاع عن الضهرية ضد العدو. اقترب من السائر بجواره، سأله عن يوم العودة إلى المدرسة. بدت الحقول واسعة أمام عينيه وهو يتابع زميله الذي قال له: إن المدارس لن تفتح أبوابها إلا بعد الحرب..

علق صوت طالب:

- ويا عالم بقى.

ابن الغريب كان سعيدا، قطع المسافة من المدرسة إلى بيتهم المؤجر جريا، وقعت كتبه أكثر من مرة، اسمه أشرف، لا ينادونه إلا بابن الغريب. والغريب ليس اسم والده

بقدر ما هو صفته، من السويس حضروا. لم يكن أشرف وقت حضوره قد نط عن السادسة من عمره يوما واحدا. يستعد هذا العام لامتحان الابتدائية. قال وهو يجري إن عودتهم قربت أكثر، التلاميذ لم يفهموا سبب فرحة ابن الغريب أبدا.

في تعثر الغزالي وسط الكلمات، سقط فوق الأحرف الخارجة من فمه، لم تستقم الحكاية في ذهن نورا. اكتفى بالقول إن المدرسة أغلقت أبوابها نهائيا.. قالت إنها سمعت ذلك من راديو في دكان البقالة ليلة أمس. لم يجد ما يحكيه. فانطلق يعوم في برك أكاذيبه، قال إن الناظر أصبح ضابطا كبيرا والتلاميذ والمدرسين جنودا. أما المدرسة، فهي الآن معسكر، وكل هذا في انتظار الحرب التي ستحدث في الضهرية بعد أيام.

اتسعت عينا نورا دهشة. ورفضت أن تصدق. ولكن الغزالي تشبث بما قاله، وزاد عليه، قال لها: إنه سيتسلم بندقية في المساء. وعليه حماية حارتهم. وضحكت عندما أدركت أن البندقية أطول منه. وعندما قال لها: إن لبس العسكرية، ذكره بمصطفى. هبت على ملامح وجهها ريح

حزينة، غرقت في صمت طويل، ولم تعد تسمعه فصمت هو الآخر.

أول أيام العطلة. الحقل. والغزالي بمفرده. حضرت بعده أمه. ثم تركته وعادت إلى البلد، كان أول ما فعله أن صعد فوق شجرة التوت، القائمة على رأس حقلهم. ومن أعلى مكان فوقها وقف ينظر في كل الاتجاهات. سمع الكثير عن مطار في البر الثاني من النهر لم ير شيئاً غطى عينيه بكفه؛ ليتمكن من الرؤية، لم تكن أمامه سوى الحقول والأشجار. نزل من فوق الشجرة وقف على رأس الحقل. الغزالي بمفرده. والفرصة متاحة أمامه لكي يقلد مصطفى في كل ما يقوم به، البداية من لحظة حضوره من البيت في الصباح. يربط البهائم في مداودها، يخلع ملابسه ويضعها في قلب جذع شجرة التوت العجوز. يحضر المنجل ويمسكه بيده. ينظر في عين الشمس ويرفع كفه يتلقى بها ضوء الشمس. ينزل الحقل، يسير ببطء، يتوقف يجلس أحياناً محاولاً رؤية شيء ما في الأرض. العودة من فوق الحد الذي يفصل أرض الجيران. الحقل والزراعة والبهائم والساقية. كل ذلك ملك الغزالي الآن. فكر أن يدور حول

الحقل من الناحية الأخرى. شعر بتعب من أثر المشي، ففك قيد الحمار، وضع فوق ظهره جوالا فارغا. قاده، وأوقفه بحداء مدار الساقية المرتفع. لف وصعد فوق المدار. أصبح من السهل عليه أن يكرب فوق ظهره حرك قدميه. ورفع صوته ونخسه، تماما كما يفعل مصطفى. على الطريق، بدت له الحقول والترعة والأشجار. نظر إلى السماء. زرقة خريفية قريبة إلى اللون الرمادي. كانت صفحة صافية من جهة الغرب. نبت جسم لم يكن له صوت. تصوره غرابا أو حداة، يطير فوق السحاب. اقترب الجسم وكبر. وملاً صوته الفضاء. كانت طائرة. مرت بالقرب منه، خاف على شجرتهم العجوز أن تصطم بها في اللحظة التي سدت فيها الطائرة عين الشمس، وحجبت عنه السماء كلها. وغرق في ظلها، أصابته رعدة، قفز الحمار، سقط الغزالي بين قدميه، رأى وهو على الأرض قوائمه الأربعة. وظل ضخم يغطي الحقول من حوله. الظل يتحرك راسما هيكل طائرة على الحقول، الظل يسير ببطء، متجها ناحية البر الآخر من النهر. وقف الغزالي، نفض جلابيه من التراب وبحث عن مداسه وتحرك نحو الحمار. أمسك مقوده ونظر ناحية

الشرق، الطائرة تقترب من الأرض. تبطئ، صوتها يخفت.
تابعها بعينيه حتى ذابت وسط الحقول والأشجار. ذهب خوفه
عندما تذكر المطار الكبير.

الطائرة التي مرت لم تكن الأولى. كاد بعضها أن
يلامس أوراق شجرتهم العجوز. شعر الغزالي بحنينه
لمصطفى الذي يفهم أمور العالم أكثر منه. أدرك أنه يحبهم.
مصطفى وأمه ونورا، وقف فوق مدار الساقية. بدأ ينظر
ناحية البلد بقلق. أمه لم تحضر بعد.

على البعد. عند أول الطريق. نبتت نقطة سوداء.
كانت تتحرك ببطء عرف فيها أمه فبدت له ملامحها أكثر
وضوحا. الغزالي ينتظرها. وهو يعد في ذهنه الكلمات
والحكايات التي سيقابلها بها. عن الطائرة والحقل وشجرة
التوت. لن ينسى أن يؤكد لها أنه لولا وجوده لبار الزرع
واحترق الشجر وتهدمت الساقية من الطائرات.

ماله دست بيغلي قال من كتر ناره

* مثل شعبي من زماننا *

[٨] لوحة أخيرة..

بدلاً من الخاتمة التقليدية

➤ كيف دخلت كلمة طفوا النور حياة الضهرية؟

الضهرية حبيب، والحبيب بحر بلا شاطئ آخر.
والبحر له أعماق وبه أماكن ضحلة ترى العين قاعها.
الضهرية كائن آدمي. يأكل ويشرب ويحاول أن يفهم ويدرك
الأمور على نحو شديد الغموض. كتلة من الناس والمباني
والأشياء تضحك وتحزن وتستوعب ما يحدث حولها على
طريقتها الخاصة.

ليلة النصف من رمضان. أتى الليل. فذابت ملامح
البلد داخل غبشة مساءه، ليالي انتصاف الأشهر لها لون معين
في حياة الضهرية. بعد غبشة المساء. يخرج قمر الليل.
قرص أحمر مستدير يرش البلد بضوء فضي لامع. الذين
خرجوا من بيوتهم لصلاة العشاء في المسجد. شاهدوا القمر
دائرة كاملة. وغيوم الخريف الكاذبة توشح أطرافه. السماء

لوح من الهدوء. والسحب معلقة بها وسط النجوم الشاحبة.
كانها قناديل الليل المنسية.

الضهرية أم فتحت ذراعيها لكل الذين يعيشون بعيدا
عنها. يستحمون كل مساء في مياه الغربية الباردة كالصقيع،
من اليوم الأول للحرب حضروا. مسحوا غربتهم في
حواريها وبيوتها. حكوا عيونهم في جدران بيوتها. الحديث
علي ألسنتهم له مفردات أخرى. جلسوا على المصاطب،
وأمام الدكاكين. قال شاب منهم: إنها أول حرب بعد دخول
النور. حواري الضهرية تنبت أطفالا صغارا يصيحون كل
مساء.

- طفوا النور.. طفوا النور.

تماما مثل البنادق البعيدة.

في الليل. ما إن يفتح باب أو توارب نافذة أو ترفع
شراعة، حتى يخرج شريط من الضوء فتتعري الحارة كلها
تحتة. وعلى الفور يصيح الأطفال:

- طفوا النور.. طفوا النور.

➤ متى دخل الشاويش فتح اللاه؟

والأومباشي عدس حياة الضهرية؟

الضهرية تسمع الآن أصواتا غريبة. سماها شبابها المثقفون العائدون من البنادر البعيدة. بعد إغلاق المدارس والجامعات. بأصوات الحرب. في الليل يخرج من الظلام عمود من اللهب الأحمر. يدور حول نفسه. موزعا ضوءه المخيف على جهات الكون الأربع بالتساوي. اهتزت بيوت البلد أكثر من مرة. قيل إن طلقة مدفع في المطار هي السبب، الهزة جعلت البيوت القديمة تنذر أصحابها بأن أيامها أصبحت قليلة. في السوق شاهدوا الجنود يشترون ما يلزمهم. منظرهم محبب إلى النفوس. في القدم حذاء خفيف دون جورب، السترة مفتوحة. يطل منها شعر أسود غزير. الرأس عار. وإن كانت علامات الطواقي العسكرية واضحة فيه. أسماء جديدة دخلت حياة الناس، الشاويش فتح الله والأومباشي عدس. كل اسم ارتبط بعالم من الحكايات، بلده وأهله وقصة حبه المحبطة، زواجه الذي لم يتم وإن كان قد تم. فالحديث عن العروس التي انتزع من أحضانها يوم الصبحية. سعادتهم لا تقدر عندما يعثرون على واحد فيهم

أصله فلاح يشم رائحة ابن كاره ولو كان على بعد ألف فدان أرض. يرى فيه أشياء يعرفها. تشقق اليدين، أو ضخامة القدمين.

عبرت داير الناحية، سيارات شرطة عسكرية، يقال بعد أن يهدأ الغبار الناتج عنها، على سبيل التوضيح:
- إنها ذاهبة إلى الوحدات العسكرية، أو راجعة منها.

➤ ما هو سر الورقة التي أعطاها زملاء

مصطفى لأمه؟

دار الأسبوع الأول. بعد رحيل مصطفى، دورة كاملة. ها هو ثاني أيام الأسبوع الجديد. ولكن خيرا واحدا لم يرد عن مصطفى. في الأيام الأولى كانت أمه ترسل الغزالي إلى مكتب البوسطة. كان يجلس على المصطبة المقابلة للمكتب. وشمس الصباح خيوط مستطيلة باهتة اللون. يظل في جلسته حتى تستدير الشمس وتصبح عمودية فوق الرأس، في هذا الوقت الطويل. يكون الساعي قد حضر فوق دراجته. حاملا معه كيس الرسائل التي توزع على

أصحابها. الغزالي يعود كما ذهب. الشيخ سليمان يمر وقت الضحى في حوار ي البلد. كثرت الرسائل معه بعد الحرب. فحمل كيسا ضخما حتى يتسع لها. تعودت نورا أن تنتظره تسأله عيناها وملامح وجهها:

- لسه مصطفى ما كتبش لكم..

في اليوم التالي، خرج الرد من بين شفتيه بمجرد أن رآها، قبل أن تسأله. كل يوم جديد يحمل الرسائل أكثر. برز من جلبابه انتفاخان. عرف الناس أنه يضع الرسائل في جيوبه من كثرتها. عند مروره على الدار كان يرفع صوته:

- لسه مصطفى ما.

ويمضي. في اليوم الأخير مر بجوار الحائط. لم يرفع صوته ولم يتكلم. الغزالي لم يجد في نفسه حماسة للجلوس على المصطبة كي يشرب صقيع الصباح. مد الخريف يده، نسج من ذبوله وسأمه وسادة استراحت فوقها القلوب المتعبة. الأم مشغولة على مصطفى. بعد الإفطار. عدت الأيام على أصابعها:

- هوه سافر يوم..

الدمع لا يأتي سريعا. لسع قلبها حنين جارف لا يعبر
عنه إلا البكاء. إن إحساسا في دفء الدموع يصعد إلى
الصدر. ولكن العينين نفذ دمعهما منذ زمان بعيد. اليوم
ينحدر نحو نهايته وسماء الغروب تبدو في انطفاء وجه
الأرملة. الغزالي لم يخرج مساء مثل كل الأماسي. أذان
العشاء. قرآن السهرة. الليل الغويط. آه من مجي ليل شتوي
ممطوط. نام الغزالي. أدخل يديه في فتحتي جلبابه ولف ذيل
الجلباب حول قدميه سمع أصواتا وأحاديث تخيل أنه السحور
وأن نورا لم توقظه، فتح عينيه، كادت رموش العين تصطدم
بجسم أسود على الحصيرة، أبعد عينيه اكتشف أنه حذاء
ميري، صعدت نظراته، كانت للحذاء رقبة طويلة. عند آخره
بنطلون كاكي. رفع رأسه كاد أن يتلامس مع السقف الأسود
المشتعل بالسناج، صدر رجل يرتدي أفرولا على رأسه
طاقية، لم يكن مصطفى. قام من نومه. تربع على الحصيرة،
فرك عينيه بسرعة اكتشف أنهم ثلاثة، من أفواهم خرجت
الكلمات سريعة. وبصوت عال. كانوا يودون الذهب، على
الحصيرة، شاهد أكواب الشاي. وأعقاب السجائر وقشر فول
سوداني. الجلسة كانت طويلة إذن. جلسوا مرة أخرى أمام

إلحاح الأم وإصرارها، اشترط واحد منهم أن يكون الجلوس لمدة ساعة فقط. صممت أن يبقوا حتى موعد السحور. اعتذروا بسفرات، وراءهم مواعيد محددة:

- الظروف يا أمي.

نورا تجلس، أمامها منقذ عليه براد الشاي. زحف الغزالي على يديه وقدميه فوق الحصيرة. مر بثلاثة ظهور بدت عريضة. السترة الصفراء فوقها لم تكن نظيفة ولا مكوية، بين السترة والسروال قايش أصفر خشن المنظر. مالت عليه نورا قبل أن يسأل:

- زمايل مصطفى.

غرقت عيناه في بحار الدهشة، اقترب منها أكثر،

أكملت:

- في مأمورية.

استوعب الغزالي الحكاية ببطء، لمست نظراته وجوهم، على الحائط خلفهم كانت تستند ثلاث بنادق، يميز أحدهم عن الآخرين ثلاثة أشرطة سوداء فوق كتفه، عينا الغزالي لم تفارق الضيوف لحظة واحدة. الكل يبحث عن بداية الحديث. كان خيطه قد انقطع بقيامهم، جلسوا من جديد

مما جعل العثور على أول الخيط صعبا. سألتهم أم مصطفى كيف عرفوا مصطفى، قال كل واحد منهم حكاية تعرفه على مصطفى. حكاها وسكت. أدرك الجميع أن في الفلاح شيئا ما يشم، يحس، يدرك ولا يدري أحد كيف يتم هذا.

- ربنا يطمئن أمهاتكو عليكمو.

الهمهمة خافتة، تخرج من بين الشفاه غير واضحة. عثروا على بداية الحديث، وتاهت العقول بين سيل الأسماء الغريبة. نظرات الغزالي تتحرك من وجه لآخر. استقرت فوق وجه نورا. الخدان إطار من البياض مشرب بحمرة خفيفة. بداخل الإطار مسحة من الجمال.

اقتربت شفنا الغزالي من إذن نورا:

- فين جواب مصطفى؟

أمسكته بيدها:

- ما بعثش.

أمه تنظر إلى الحصيرة، على ملامح الوجه شريط من الظلال. فوق جبهتها ثنية متفكرة. بدت وكأنها إحدى ملامح الوجه الطبيعية، أكثر الكلمات كانت عن مصطفى. سألتهم عن موعد حضوره، قالوا: إن الإجازات مستحيلة.

اخشوشن قلب الغزالي. عرضت عليهم أن تعد طعاما لهم، يأخذونه معهم. ضحكوا. قال واحد منهم: إن الأكل عندهم يسد عين الشمس. رأت في أصواتهم ملامحه. ولمست فيها رائحة مصطفى: عاد الصمت فأنبت في القلوب مخاوف جديدة. كل ما قالوه عن مصطفى بخير. في لحظة انصرافهم اخرج الرجل حامل الأشرطة الثلاثة فوق كتفه من جيب سترته ورقة. الضوء خافت والورقة البيضاء أكثر الأشياء وضوحا في المشهد كله، لوح لها بيده:

- دا توكيل.

أطلت من عينيها التساؤلات.

- بموجب التوكيل ده يا أمي.

شرح لها. تذهب أول كل شهر إلى الحمامات، لتصرف مرتب مصطفى، انتشر بداخلها غناء رقرق، كلمات غنتها أيام أن كان القلب أخضر وطريا.

- وهو هـ.

هزت أياديهم القوية يدها. تحركوا، كان الغزالي يقف

بين قدميها:

- وصل الضيوف يا غزالي.

حمل اللبنة الجاز وخرج. انطفأت من الهواء. فعاد وأشعلها. في الحارة كانت الظلال تتحرك ببطء. ظل الغزالي معهم إلى أن ألحوا عليه أن يعود. وهو عائد إلى البيت شعر برغبة في الغناء. ولكنه خاف ملامح وجه أمه المتعب، فسكت.

➤ عندما دخلت كلمة الاستراتيجية في محضر صلح رسمي.

الجلسة المفضلة للرجال بجوار ترعة تدور حول البلد. يقرءون على صفحة مياهها بطء أيامهم، وقت الغروب تكون حمراء. تبدو في بياض القطن المندوف عند برودة الفجر. أما طول النهار فزرققتها مغسولة لامعة. النهارات الصحوة في أكتوبر حالات كاذبة. وشمس الشتاء غيمة صفراء. السحب تمر بهدوء وببطء من تحتها وفوقها. الرجال يتكلمون، على الشفاه ترقص الكلمات والتعابير تقال باللغة العربية الفصحى. تنزلق على الألسنة. الأصابع تمتد إلى الراديوها تعبث بمفاتيحها، تحولها إلى كل الاتجاهات. تلتصق بها الأذن. الذهن يصيبه الضنى وهو يحاول أن يفهم ما تنصده

الأذان من أصوات. الشيخ سليمان، موزع الخطابات له أكثر من عمل آخر. أهمها أنه يشرح للناس ما يحدث. لا يدري أحد من أين يجد اليقين الذي يستريح له في حكاياه هذه. يقترب من حلقة الرجال. يرمي عليهم السلام ويبدأ في الحديث. بعد كلمة أو كلمتين، تمتد أصابع الشباب لتعيد النظارات الطبية إلى مكانها الطبيعي فوق الأنف.

قال الشيخ سليمان:

- أصل الترانيجة.

الكلمة الأولى كانت عامية. الثانية لم تخرج من بين شفثيه صحيحة. عدوى الابتسامة لفت دائرة المحيطين به. يسألونه. الجهل اتهام جاهز على لسانه. يرمي به الكل.

- وإيه معنى الاستراتيجية؟

الشاب نطقها صحيحة، فاستقر في وعي الشيخ سليمان إحساس بالقهر.

انتفض الشيخ سليمان:

- إيه شغل المدارس دا يا ولد أنت وهو.

كالعادة، انتهت الجلسة بمحضر صلح مكتوب من أصل
وصورتين، وموقع عليه من المتعاركين جميعا، بالألا
يتعرضوا لبعضهم بعد ذلك. ومعتمد من العمدة وشيخ البلد.
الخفير النوبتجي الذي يكتب محضر الصلح في دوار العمدة
وقف طويلا أمام الكلمة. سأل الشاب:

- أלא إيه الكلمة سبب العراك؟

نطقها الشاب أكثر من مرة. ولكن الخفير لم يستطع كتابتها.
ضحك الكل. ولكن الخفير حول الموقف لصالحه، بأن خبط
المنضدة بكلوة يده.

وأمر الشاب:

- استهجي الكلمة يا أستاذ. حا امتحنك.

قال الشاب وسط الضحكات:

- ألف لام ألف. سين. ته.

➤ في الصباح والسماء:

تليفون العمدة يدق

في فجر اليوم الخامس عشر بعد رحيل مصطفى، وقع حادث هز الضهرية كلها. شاهد خفير الدرك المعين في أول البلد من الناحية القبلية مع أول قطرات الضوء نقطة بعيدة تتحرك ببطء. على آخر الشوف. كانت النقطة تتحرك وتتوقف. ترتفع وتنخفض. الفجر هو أحلى أوقات النوم في الليل كله. ولكن الخفير أصبح أكثر يقظة. عندما انعكس على حديد بندقيته الصدى أول خيط رفيع من ضوء الشمس، كانت النقطة قد أصبحت عند مشارف البلد، النقطة لم تكن سوى شاب من أبناء البلد. عرفه الخفير على الفور:

- عبد الله.. مالك؟

الدفعة عبد الله لم يرد.. مديده للخفير الذي اقترب منه. وبدلاً من السؤال والجواب. أمسك بيده اليسرى، ولفها حول كتفه، حمله وساربه. كل الذين شاهدوا الخفير وعبد الله، كانوا ذاهبين إلى الجامع للصلاة أو الحقول للعمل. كلهم عادوا. ساورا وراء الخفير الذي يسند عبد الله. بل يحمله من حارة لحارة. ازداد العدد، أطفال وشيوخ ونساء، تهامسوا..

ففضحهم البخار الخارج من الأفواه مع الكلمات. وعكرت
الهمسات صفو الحارات وهدوءها الصباحي. فسكتوا. حينما
وصل الخفير إلى باب بيت عبد الله. كانت الضهرية كلها
وراءه، خبط الباب بقدميه. ودخل الخفير ساندا عبد الله.
خرج الخفير بعد قليل بمفرده. ليؤكد لهم. أن عبد الله أصيب
برصاصة في فخذه. عبر وحارب وأصيب. عولج في
المستشفى العسكري. وحضر في إجازة مرضية. وإن كان
الجرح لا يزال طريا. قال رجل منهم:

- يعني في فترة نقاهة.

سأله الخفير:

- فترة إيه يا خويا؟

نبت من الكتلة الدافئة من الناس، سؤال واحد:

- عقبال ابننا يا رب.

قالتها أكثر من امرأة. وهن في الطريق إلى بيوتهن. وفي
دوار العمدة. كان التليفون يدق. دقاته تحرك الخفير
النوبتجي. الذي يقوم مسرعا كالمسوع. يمسك المسماع بيده.
يقربه من أذنه وينصت، خطوط التعب تستريح على ملامح
وجهه:

- يصير التنبيه على الجندي مرزوق أبو السعود. بتسليم نفسه إلى مكتب التعبئة بمركز إيتاي البارود. ليس متأخرا عن سعت.. يوم.. يحمل المراسلة النوبتجي الإشارة. مكتوبة على ورقة صغيرة مشرشرة الحواشي يذهب بها إلى العمدة، أو نائبه. يقرأها بتمهل. وبقلمه الأبنوس القديم يؤشر عليه. "التنبيه على المذكور، والتوقيع منه بالمعلومية" يذهب الخفير المراسلة إلى بيت مرزوق وهو يفهم ما سيحدث هناك. لحظة الوداع. ستقول أم مرزوق له بحروف مغموسة في دموع العين:

- أول ما توصل ابعت لنا جواب يا كبدي.